

أجاثا كريستي

البيت الأعوج



للنشر والتوزيع



دار النجمة

البييت الأعوج

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أجاثا كريستي

البيت الأعوج

دار النجمة ★ للنشر والتوزيع

جميع حقوق هذه الطبعة محفوظة للناشر:

دار النجمة للنشر والتوزيع

يُمنع تصوير أو إعادة إنتاج هذا الكتاب
ورقياً أو إلكترونياً إلا بإذن خطي مسبق من الناشر

للاستفسار والطلبات التجارية

AgathaBooks@sardira.com

قابلت صوفيا ليونيدس لأول مرة في مصر قبيل الحرب العالمية. كانت تشغل منصباً هاماً في إحدى المكتبات التابعة لوزارة الخارجية البريطانية، وكانت صلتني بها في البداية مجرد صلة عمل، ولكنني ما لبثت بعد فترة صغيرة أن تبينت ما لها من مواهب وصفات مميزة أهلتها للاضطلاع بمسؤوليات ذلك المنصب رغم أنها لم تتجاوز الثانية والعشرين من عمرها.

كانت على قدر كبير من الجمال والذكاء، وكان يطيب لي حديثها فتوثقت بيننا وأواصر الصداقة وصرنا نخرج معاً لتناول العشاء في بعض الأحيان. واستمرت هذه الصداقة إلى أن وضعت الحرب أوزارها وصدر الأمر بنقلي إلى منصب في الشرق الأقصى، وحينئذٍ اكتشفت أنني أحبها وأني أتمنى أن أتخذها زوجة لي. اكتشفت ذلك ونحن نتناول طعام العشاء معاً في فندق شبرد، ولم يدهشني هذا الاكتشاف، فقد كان بمثابة اعتراف بحقيقة أعرفها منذ وقت طويل.

ونظرت إلى صوفيا بعين جديدة، ولكنني لم أرَ فيها غير ما ألفت رؤيته والإعجاب به: الشعر الأسود الغزير يتوج رأسها، والعينين الزرقاوين الصافيتين، والأنف الصغير والذقن

البارزة التي تدل على قوة الإرادة. وكنت قد لاحظت بعد كل الأحاديث الصريحة التي دارت بيننا عن آرائنا وأصدقائنا أن صوفيا لم تذكر كلمة واحدة عن أسرتها. كانت تعرف كل شيء عني وأنا لا أعرف عنها شيئاً، ولكنني لم أفطن إلى هذه الحقيقة قبل تلك الليلة. وسألته صوفيا فيم أفكر، فأجبتها: فيك.

- أحقاً؟

- أنا لا أعرف متى سأعود إلى إنجلترا، ومن المحتمل جداً أن يمر عامان قبل أن نلتقي مرة أخرى. وقد كنت الآن أفكر في أن أول ما سوف أفعله عقب عودتي هو أن أذهب إليك لأطلب يدك.

فاستقبلت النبأ في هدوء ولم يخفق لها هذب، واستمرت تدخن دون أن تنظر إليّ حتى خيل إليّ أنها ربما لم تفهم ما أعني.

قلت لها: أنا مصمم على ألا أطلب يدك الآن لأن ذلك سيكون ضرباً من الغباء أولاً، ولأنك ربما ترفضين فأذهب حزيناً كسير القلب، وقد يدفعني اليأس إلى أن أربط مصيري بمصير مخلوقة تافهة. وثانياً، لأنك إذا وافقت فإنني لا أعلم ماذا نستطيع أن نفعل بعد ذلك. هل نتزوج فوراً ونفترق غداً أم نعدد خطوبتنا ومنتظر إلى ما شاء الله؟ إنني لا أريدك إذا قابلت رجلاً آخر أن تشعرني بأنك مرتبطة بي. نحن نعيش الآن في فترة محمومة يتزوج فيها الناس بسرعة ويطلقون بسرعة، وأنا أريد لك أن تعودي إلى ذويك حرة مستقلة لكي تنظري حولك

في دنيا ما بعد الحرب وتقرري ماذا تريدينه منها. وإذا قدر لنا أن نتزوج فإنني أريد لزواجنا أن يدوم.

- لقد فهمت وجهة نظرك يا تشارلز. وفي استطاعتك أن تأتي لزيارتي عندما تعود إلى إنجلترا، ذلك إذا لم تكن قد عدلت عن رأيك.

- هذا ما لن يحدث.

- لا تجزم بأمر يا تشارلز. إن أتفه شيء قد يبدد أعز الأحلام ويطيح بأجمل الأمنيات، ثم إنك لا تعرف شيئاً عني، أليس كذلك؟

- الواقع أنني لا أعرف حتى عنوانك في إنجلترا.

- إنني أقيم في سونيلي دين.

وكنت أعلم أن سونيلي هي أبعد ضواحي لندن، وفيها ثلاث ساحات كبيرة للعب الغولف يختلف إليها رجال المال والأعمال لممارسة هوايتهم المفضلة. واستطردت صوفيا وهي مستغرقة في التفكير: في بيت صغير مشوّه.

ولاحظت دهشتي فبدأت تردد أغنية معروفة من أغنيات الأطفال: "كان ثلاثتهم يعيشون في بيت صغير أعوج" ... هذا البيت الصغير كله أبراج ونحن جميعاً نقيم فيه.

- هل لك أسرة كبيرة؟

- كبيرة. إنها تتألف من أخ وأخت وأب وأم وعم وزوجة عم وجد وزوجته وشقيقة للجدّة.

فصحت مدهوشاً: يا إلهي!

فضحكت وقالت: والجميع يعيشون في كنف الجد، وهو رجل في الثمانين من عمره لا يزيد طوله على مئة وخمسين سنتيمتراً، ولكنه رجل يتضاءل أمامه كل الرجال.

- لا بد أن له شخصية قوية.

- نعم، إنه يوناني الأصل ويدعى أرسيد ليونيدس. ثم غمزت بعينها واستطردت قائلة: وهو واسع الثراء.

- وهل سيكون في الدنيا أثرياء بعد هذه الحرب؟

- إن جدي ثري وسيظل ثرياً مهما وضعوا من قيود على رؤوس الأموال. وهو سيعرف كيف يقلم أظافر من يحاول أن يقلم أظافره. وصمتت قليلاً ثم أردفت: إنني أتساءل، ترى هل ستجبه؟

- وهل تحببته أنت؟

- أكثر من أي إنسان آخر في الدنيا.

* * *

مر عامان قبل أن أعود إلى إنجلترا، عامان طويلان كنت خلالهما أكتب إلى صوفيا وكانت تكتب إليّ. كنا نراسل لا كعاشقين وإنما كصديقين عزيزين يجدان متعة في تبادل الآراء وتسجيل انطباعاتهما مما يتعرضان له في حياتهما اليومية. لكنني رغم ذلك كنت أعلم أن مشاعري نحوها لم تتغير، وكان لدي ما يحملني على الاعتقاد بأن مشاعرها هي أيضاً لم تتغير.

ثم وصلت إلى إنجلترا في يوم غائم من أيام شهر سبتمبر. وكان النسيم عليلاً وأشعة الشمس الغاربة تصبغ أوراق الشجر بلون ذهبي، فأرسلت من المطار البرقية التالية إلى صوفيا: "وصلت الآن، هل تتناولين معي طعام العشاء في التاسعة مساءً بمطعم ماريو؟".

وبعد ساعتين كنت أتصفح جريدة التايمز فوق وقع بصري في صفحة الوفيات على النعي التالي: "تنعى بريندا ليونيدس ببالح الحزن والأسى زوجها أرسيتيد ليونيدس الذي توفي في سونيلي دين يوم ١٩ سبتمبر عن خمسة وثمانين عاماً". وتحت هذا النبأ قرأت الإعلان التالي: "ينعى أولاد أرسيتيد ليونيدس المأسوف

عليه عميد الأسرة الذي توفي فجأة بقصره بضاحية سونيلي دين، والعزاء بكنيسة سانت إيلديريد بالضاحية المذكورة".

وأدهشني هذا الازدواج في نشر النعي ورددته إلى خطأ مطبعي من جانب الجريدة، وأرسلت إلى صوفيا على الفور البرقية: "علمت في التو واللحظة نبأ وفاة جدك، تقبلي عزائي، متى سأستطيع مقابلتك؟ تشارلز". وأجابت صوفيا ببرقية وصلتنني في السادسة مساءً بعنواني عند أبي وقد جاء فيها: "سأكون بمطعم ماريو في الساعة التاسعة. صوفيا".

* * *

كان مجرد التفكير في أنني سأراها كافياً لأن يشد أعصابي، فلم أستقر على حال إلى أن دنا موعد اللقاء، فذهبت إلى مطعم ماريو في الساعة الثامنة وأربعين دقيقة. وتأخرت صوفيا عن الموعد نحو عشرين دقيقة أخرى، وكان ظهورها مفاجأة لي تختلف عما توقعته، فقد كانت ترتدي ثوباً أسود، وعلى الرغم من أن ذلك كان أمراً طبيعياً إلا أنه فاجأني، إذ لم أتصور قط أن صوفيا ترتدي ثوب الحداد حتى من أجل أعز الناس عليها.

تناقلنا أبناء أصدقائنا في القاهرة وتحدثنا طويلاً في أمور كثيرة لا أهمية لها، ولكن الحديث أزال ما كنا نشعر به من حرج، ولما عبرت لها عن أسفي لموت جدها قالت إن موته لم يكن متوقفاً، ثم عادت إلى الحديث عن القاهرة وبدأت أشعر بالقلق، فقد خيل إلي أن أحاديثنا تفتقر إلى الصراحة والإخلاص. وخطر لي أن صوفيا ربما عرفت رجلاً آخر من دوني أو لعلها اكتشفت أنها أساءت فهم حقيقة مشاعرها

نحوي، وقد ظللت نهباً للشك والقلق إلى أن حمل إلينا الخادم القهوة فحينئذٍ ذاب الجليد دون أية محاولة من جانبي. وجدت نفسي أجلس بجوار صوفيا أمام مائدة صغيرة في أحد المطاعم كسابق العهد بنا، كما لو كنا لم نفترق طوال العامين الأخيرين، فهتفت باسمها في همس: صوفيا.

- تشارلز.

قالت ذلك بالصوت العذب الذي رجوت أن أسمعه، فتنهدت بارتياح وهتفت قائلاً: أخيراً.

وابتسمنا، فسألتها: متى ستتزوج؟

فتلاشت الابتسامة عن شفيتها وأجابت: لا أعلم يا تشارلز، بل لست على يقين من أنني سأقترن بك يوماً ما.

- لماذا يا صوفيا؟ هل ترين أنني تغيرت وأنت بحاجة إلى بعض الوقت لكي تألفيني؟ هل تحبين شخصاً آخر؟

فهزت رأسها ببطء وأجابت: كلا.

وانتظرت مزيداً من الإيضاح فقالت على الفور: بسبب موت جدي.

- ماذا تعنين؟ إن موته لا يغير شيئاً، وإذا كنت تفكرين في موضوع المال فإن...

فقاطعتني: كلا، لست أعني ذلك. واستطردت بعد قليل وعلى شفيتها ابتسامة يائسة: أنا أعلم جيداً أنك ستقترن بي حتى ولو لم أكن أملك درهماً واحداً، ومع ذلك فإن جدي لم

يفقد أمواله وقد ترك ثروة كبيرة.

- إذن؟

- المسألة هي أنه لم يمت كما يموت سائر الناس، وأنا أعتقد أنه قد قُتل!

- وماذا يحملك على هذا الاعتقاد؟

- أنا لست الوحيدة التي تعتقد ذلك. لقد رفض الطبيب توقيع شهادة الوفاة وسيجري تشريح الجثة، وهذا دليل على أن هناك بعض الشك.

ولم يكن في نيتي مناقشتها، فإنها من الذكاء بحيث تعرف ما تقول. قلت لها: هذا الشك ربما لا يقوم على أساس، لكن حتى لو كان على أساس فما علاقته بنا؟

- هل أنت واثق مما تقول؟ هل نسيت أنك تعمل في السلك الدبلوماسي وأن اختيار الزوجة عامل أساسي له تأثيره على مستقبل الرجل الدبلوماسي؟ أنا أعرف الإجابة التي تتحير على شفتيك وتريد أن تنطق بها، ولكنني أرجوك ألا تفعل. إنها إجابة يملها واجب الأدب والمجاملة وربما كانت بالنسبة إليك تعبر بصدق عن حقيقة شعورك وتفكيرك، وأنا أقرك عليها من حيث المبدأ ولكنني امرأة تعتز بكبريائها ولا تريد لزواجها أن يتعرض للقليل والقال أو أن يتطلب منك تضحية أو شبه تضحية، وعلى كل حال فإنه من المحتمل جداً أن ينتهي الأمر بسلام.

- هل تعنين أن الطبيب ربما كان مخطئاً؟

- على فرض إنه لم يخطئ وكان هناك قاتل من الخارج
فإن الأمر سوف ينتهي بسلام.

ولم أفهم ما تعني فمضت تقول: كان رهيباً ما ذكرته
الآن، أليس كذلك؟ ولكني أرى أن الصراحة أجدى وأفضل.

أدركت السؤال الذي يتحير على شفتي وأجابت عليه
قبل أن أنطق به، قالت: كلا يا تشارلز، لا أستطيع أن أزيدك
إيضاحاً، بل ربما أكون قد قلت لك فعلاً أكثر مما ينبغي. إنني
ما جئت الآن إلا لكي أقول لك إننا لن نستطيع أن نقطع برأي
في أمر زواجنا قبل أن يماط اللثام عن سر مصرع جدي.

- ألا تزيديني إيضاحاً يا صوفيا؟

- كلا يا تشارلز فلست أريدك أن ترى الأمور من وجهة
نظري. يجب أن تنظر إلينا بلا تحيز كأى إنسان غريب لا صلة
له بنا من قريب أو بعيد.

- وكيف أستطيع ذلك؟

فتألفت عيناها الزرقاوان وقالت: ستعرف من أبيك.

كنت ونحن في القاهرة قد ذكرت لصوفيا أن أبي يعمل
نائباً لمدير اسكتلنديارد، وكان لا يزال يشغل هذا المنصب.
وأزعجتني عبارتها الأخيرة وسألتها: هل الأمر بهذا السوء؟

- أظن ذلك، هل ترى الرجل الذي يجلس وحيداً أمام
المائدة بالقرب من الباب؟ يبدو أنه أحد رجال الشرطة.

- يخيل إليّ ذلك.

- لقد كان على رصيف سونيلي دين عندما ركبت القطار إلى لندن.

- هل تعقبك؟

- نعم، وأكبر الظن أننا جميعاً تحت المراقبة. لقد أُلحوا لنا بأنه من الأفضل ألا نغادر البيت ولكنني جازفت لكي أراك. وصممت لحظة ثم استطردت قائلة: لقد خرجت من نافذة الحمام وهبطت على أنابيب الماء.

- يا إلهي!

- ولكن الشرطة كانت ساهرة، ولا شك أنهم قرؤوا البرقية التي بعثت بها إليّ. مهما يكن الأمر فما نحن معاً، ذلك هو المهم، ولكن من سوء الحظ أنه يجب من الآن أن يلعب كل منا دوره على انفراد، أنت من جانبك وأنا من جانبي. وأقول من سوء الحظ لأننا ما زلنا متحابين.

- أصغني إليّ يا صوفيا! أنت وأنا قد عشنا معاً حرباً عالمية ورأينا معاً الموت عن قرب، فلا معنى الآن لأن يؤدي موت رجل عجوز... بهذه المناسبة، كم كان عمره؟

- خمسة وثمانين عاماً.

- تماماً، كما ذكرت صحيفة التايمز. لقد بلغ من السن عتياً ومات بسبب الشيخوخة. ذلك ما يجب أن يقرره أي طبيب يعرف واجباته.

- لو عرفت جدي لأدهشك أن يموت لأي سبب كان.

* * *

كنت دائماً أهتم بالتحقيقات التي يشرف عليها أبي، ولكنني لم أتوقع أن يثير أحد هذه التحقيقات اهتمامي لأسباب شخصية. ولم أكن قد رأيت أبي منذ عودتي، فإنه لم يكن بالبيت عندما وصلت إليه، فاغتسلت واستبدلت ثيابي وانطلقت للقاء صوفيا. ولما عدت من هذا اللقاء أنبأني جلوفر كبير الخدم بأن أبي في مكتبه. فذهبت إليه ووجدته منهمكاً في قراءة أوراق أمامه. ولم يكد يراني حتى انبعث واقفاً وهتف مرحباً: تشارلز، ها أنت ذا أخيراً.

كان ذلك أول لقاء بيننا منذ خمس سنوات. وعلى الرغم من أن ترحيبه بعودتي لم يتجاوز هذه الكلمات الثلاث إلا أن تأثيره لم يكن أقل من تأثري. كان كل منا يحب الآخر ويفهمه تماماً. وقال: يؤسفني أنني لم أكن بالبيت لكي أستقبلك عند عودتك، ولكنني مثقل بالعمل ولم أكن بحاجة إلى القضية المزعجة الجديدة التي منيت بها اليوم.

فسألته: هل تعني قضية أرسيد ليونيدس؟

فتفرس في وجهي لحظة، ثم قطب جبينه وسأل: ماذا

حملك على أن تقول ذلك يا تشارلز؟

- أأست على صواب؟

- كيف علمت؟

ظل يحملق في وجهي انتظاراً لمزيد من الإيضاح فقلت:
من مصدر موثوق به.

- ما هذا المصدر؟

- قد لا يسرك أن تعرفه، ولكن لا مناص من أن أفضي
إليك بالحقيقة. لقد تعرفت على صوفيا ليونيدس في القاهرة
وأحببتها وأعتزم الاقتران، بها، وقد قابلتها وتناولنا طعام
العشاء معاً.

- هنا، في لندن؟ كيف فعلت ذلك؟ لقد طلبنا إلى أفراد
الأسرة (بأدب طبعاً) ألا يرحوا البيت.

- أعلم ذلك، ولكنها خرجت من نافذة الحمام وهبطت
على أنابيب الماء.

فارتسمت على شفثيه ابتسامة وقال: يخيل إلي أنها فتاة
ذكية.

- هو ذلك، ولكن الشرطة لم تغفل عنها، فقد تبعها أحد
رجالك إلى المطعم، ومن الأكيد أنه سيذكرني في تقريره إليك
وسيقول إن صوفيا ليونيدس هربت من البيت وقابلت شاباً
أسود الشعر والعينين طوله ١٧٥ سنتيمتراً يرتدي ثوباً رمادياً،
إلخ.

فرمقني أبي بنظرة فاحصة وقال: حدّثني يا تشارلز، هل أنت جاد في مشروع الزواج هذا؟

- نعم يا أبي.

فأطرق برأسه مفكراً ولزم الصمت.

سألته: هل يضايقك ذلك؟

- إنه ما كان يضايقني لو أنني علمت به منذ أسبوع، فالأسرة كريمة والفتاة سترث ثروة طائلة. أما في الظروف الحالية...

- ماذا؟

- من المحتمل أن تجري الأمور على ما تهوى لو...

- لو ماذا؟

- لو ثبت أن القاتل من غير الأسرة.

وأثارت هذه العبارة فضولي، فقد سمعتها مرتين في تلك الليلة. سألته: ماذا تعني؟

فرمقني مرة أخرى بتلك النظرة الفاحصة وقال: ماذا تعرف بالضبط عن القضية؟

- لا شيء.

- لا شيء، ألم تحدثك الفتاة عنها؟

- لا. قالت إنها تفضل أن أنظر إليها بلا تحيز كأبي غريب لا صلة له بالأسرة.

- ليتني أعلم لماذا.

- أليس السبب واضحاً؟

فلم يجب، ونهض عن مكتبه وراح يذرع أرض الغرفة جيئةً وذهاباً وهو مطرق برأسه، ثم سألتني فجأة: ماذا تعرف عن هذه الأسرة يا تشارلز؟

- أعلم أنها تتألف من الجد ومجموعة من الأولاد والأحفاد والأقارب والأنساب، ولكنني لا أعرف تماماً صلة كل منهم بالآخر، حبذا لو زدتني معرفة بهم.

فعاد إلى مقعده أمام المكتب وقال: حسناً، سأبدأ من البداية. لقد جاء أرسفيد ليونيدس إلى إنجلترا وهو في الرابعة والعشرين من عمره.

- كان يونانياً.

- آه، أتعلم ذلك؟

- نعم، هذا تقريباً هو كل ما أعلمه عنه.

وفي هذه اللحظة، فتح باب الغرفة وأطل منه جلوفر ليلعن قدوم المفتش تافرر، فقال أبي: إنه المفتش المنوط بتحقيق القضية، سأسمح له بالدخول. لقد تحرى عن الأسرة وأصبح يعرف عنها أكثر مما أعرف.

فسألته عما إذا كانت الشرطة المحلية في ضاحية سوينلي دين هي التي طلبت معونة اسكتلنديارد، فأجاب: كلا، إن سوينلي دين تقع في نطاق عملنا لأنها من ضواحي لندن.

وكنت أعرف المفتش تافرير منذ عدة سنوات، فشد على يدي بحرارة وهنأني بالخروج سالماً من الحرب. وقال له أبي: كنت أحدث تشارلز عن أرسيد ليونيدس، فأرجو أن تصحح معلوماتي إذا أخطأت.

ثم التفت إليّ وقال: جاء ليونيدس إلى لندن سنة ١٨٨٤ وافتتح مطعماً صغيراً في حي سوهو، وحالفه التوفيق فادخر بعض المال، وافتتح مطعماً آخر ثم مطعماً ثالثاً، وهكذا حتى أصبح يمتلك سبعة أو ثمانية مطاعم تعمل كلها بنجاح.

فقال تافرير: ومن العجب أنه لم يقع طوال هذا الوقت في أي خطأ.

واستطرد أبي قائلاً: كان رجل أعمال بالغريزة، وما لبث أن حول اهتمامه إلى مطاعم لندن غير المعروفة فراح يبتاعها ويعيد تنظيمها، ثم بدأ بتجارة المواد الغذائية على نطاق واسع.

قال تافرير: كان اهتمامه موزعاً في مجالات كثيرة، كتجارة الملابس المستعملة والمجوهرات المقلدة.

فسألته: هل كان محتالاً؟

فهز المفتش رأسه وأجاب: كلا، كان فطناً ذكياً يعرف كيف ينفذ من ثغرات القانون ولكنه لم يرتكب قط ما يوقعه تحت طائلة العقاب. كان إذا بدأ عملاً استغل قصور القوانين التي تحكمه، فإذا تدارك المشرعون هذا القصور ترك هذا

العمل إلى عمل آخر، وهكذا. واستطاع بذلك أن يجني أرباحاً طائلة خلال سنين الحرب.

فقلت: يخيل إليّ أنه كان شخصية مقبولة.

فأجاب أبي: بل كان على العكس من ذلك، صحيح أنه كان من حيث المظهر قزماً دميماً، ولكنه يتمتع بشخصية جذابة حبيته إلى النساء. وقد وفق في زواجه إذ اقترن بابنة رجل محترم من تجار الفراء.

- زواج مصلحة طبعاً؟

- بل زواج حب. قابلته الفتاة ذات ليلة بينما كانت تشرف على إعداد مائدة لمناسبة خطوبة إحدى صديقاتها فأحبته وصممت على الاقتران به رغم معارضة ذويها، ذلك لأنه كان لبقاً ظريفاً، بينما كانت هي تعاني من السأم والملل في بيت أسرته.

- وهل كان الزواج سعيداً؟

- إلى أبعد حدود السعادة، رغم أن أصدقاءها قاطعوها. إذ لم يكن المال قد أزال الفوارق بين الطبقات بعد، ولكنهما لم يعباً بقطيعة الأصدقاء وشيدا بيتهما في سوينلي دين وعاشا سعيدين ورزقا بأولاد كثيرين.

- كما في الأساطير!

- لقد كان ليونيدس موفقاً غاية التوفيق حين وقع اختياره على سوينلي دين. ولم يكن في هذه الضاحية سوى ساحة

واحدة للجولف، ولكنها أخذت تزدهر وتتخذ طابع الضواحي الراقية، وكان أهلها يتألفون من السكان الأصليين الذين يقيمون فيها منذ وقت طويل ويعنون أشد العناية بحدائقهم ومن رجال المال والأعمال الذين يتوقون إلى التعامل مع ليونيدس، وهكذا أتيحت لليونيدس وزوجته فرصة لاختيار من يروقه من الأصدقاء، وعاشا في سعادة تامة إلى أن أصيبت الزوجة بالتهاب رئوي وتوفيت في سنة ١٩٠٥ تاركة لزوجها ثمانية أولاد. ثم مات أحد هؤلاء الأولاد وهو طفل وقُتل اثنان في الحرب العالمية الأولى، وتزوجت إحدى الفتيات وهاجرت إلى أستراليا حيث توفيت، وقُتلت فتاة أخرى في حادث سيارة، وماتت فتاة ثالثة منذ عام أو عامين. فلم يبق على قيد الحياة سوى الابن الأكبر ويدعى روجر، وهو متزوج ولم يرزق بأولاد، وابن آخر يدعى فيليب، وهو متزوج من ممثلة معروفة وله منها ابنتان، إحداهما صوفيا التي حدثتني عنها والثانية تدعى جوزفين، وولد يدعى أوستاش.

- وهل يقيمون جميعاً في ذلك البيت؟

- نعم، كان روجر يقيم في لندن ولكن قبلة سقطت على بيته في بداية الحرب فهدمته، فانتقل إلى بيت أبيه المدعو «بيت القباب الثلاث»، وفي هذا البيت تقيم أيضاً الأنسة إديث دي هافيلاند، شقيقة الزوجة الأولى لأرستيد ليونيدس. وكانت إديث تكره أرستيد وتحترقه فلما ماتت أختها رأت من واجبها أن تقبل دعوة أرستيد حين دعاها للإقامة عنده والإشراف على تربية الأولاد.

قال المفتش تافرير: كانت تحترم واجباتها ولكنها لم تكن من أولئك الذين يغيرون آراءهم في الناس، فظلت تحتقر ليونيدس وتدين وسائله وأساليبه.

قلت: صفوة القول إن البيت حافل بالناس، فمن تظنه القاتل؟

فهز المفتش وأجاب: إنني لم أقطع برأي بعد؛ هذا سابق لأوانه.

- أراهن على أنك تعرف القاتل. اذكره لنا بصفة خاصة أيها الصديق، فنحن لسنا في المحكمة.

- نعم، نحن لسنا في المحكمة ومن المحتمل ألا نذهب إليها أبداً.

- هل معنى ذلك أن العجوز لم يقتل؟

- بل لقد قُتل. ولكن جرائم القتل بالسّم تتشابه كلها في تعذر إقامة الدليل، وإن تكن القرائن كلها تشير إلى شخص بعينه.

فصحت: هذا اعتراف صريح بأنك تعرف القاتل.

- قلت إن هناك قرائن قوية ولكن لا يوجد دليل، وأنا لست على يقين.

فنظرت إلى أبي ملتصقاً معونته فقال ببطء: جرت العادة في جرائم القتل أن يكون أوضح الحلول هو في الغالب

أصوبها، ولعلك لا تعلم يا تشارلز إن ليونيدس اتخذ لنفسه زوجة أخرى منذ عشرة أعوام.

- وهو في الخامسة والسبعين من عمره؟

- نعم، وكانت الزوجة الجديدة في الرابعة والعشرين من عمرها!

فلم أتمالك من أن أصفر بشفتي دهشة وقلت: وأي نوع من النساء هي؟

- فتاة صغيرة محترمة وجميلة كانت تعمل مضييفة في أحد مشارب الشاي.

- هل هي التي تحوم حولها أقوى الشبهات؟

فأجاب تافرنز: طبعاً. إنها في الرابعة والثلاثين، أخطر فترة في حياة المرأة، وهي مولعة بالترف، وفي البيت شاب في مقتبل العمر يعمل مدرّساً للأولاد ولم يشترك في الحرب بدعوى أنه مريض بالقلب أو ما يشبه ذلك.

- وما نوع السم الذي استخدم في الجريمة؟ هل هو الزرنيخ؟

- كلا، إننا لم نتلقَ بعد تقرير معمل تحاليل المواد السامة، ولكن الطبيب يعتقد أن السم الذي استخدم في الجريمة هو الإيزيرين.

- إنه سم غير مألوف، وأعتقد أنه ليس من الصعب معرفة الشخص الذي اشتراه.

- هذه ليست المشكلة، فصاحب الإيزيرين هو ليونيدس نفسه وكان يستخدمه كقطرة لعينه.

قال أبي: كان ليونيدس مريضاً بالسكر وكان يحقن بالأنسولين بانتظام، والأنسولين يباع في قنينة صغيرة لها سدادة من المطاط، والطريقة المتبعة هي أن تملأ الحقنة بمادة الأنسولين من خلال السدادة ثم يحقن المريض.

- فهتمت، كانت القنينة التي استخدمت في يوم الحادث مليئة بالإيزيرين بدلاً من الأنسولين، أليس كذلك؟
- تماماً.

- ومن الذي حقن ليونيدس؟
- زوجته الشابة.

وهنا فقط فهتمت ماذا كانت صوفيا تعني حين قالت إن الأمر سوف ينتهي بسلام إذا كان القاتل من خارج الأسرة. سألت: وهل الأسرة على وفاق مع زوجة ليونيدس؟
- كلا، إنهم لا يتبادلون الحديث إلا نادراً.

كان كل شيء يبدو واضحاً، فالقرائن كلها تأخذ بتلايب الزوجة الشابة، ورغم ذلك كانت تبدو على المفتش تافرير دلائل الشك والتردد، فسألته: يخيل إليّ أن هناك ما يقلقك؟

فأجاب: نعم، فثمة شيء يتعذر عليّ فهمه. إذا كانت الزوجة الجانية حقاً فلماذا لم تبادر إلى استبدال قنينة الإيزيرين

بأخرى تحتوي على أنسولين؟ كان من السهل عليها أن تفعل ذلك.

- هل يوجد أنسولين بالبيت؟

- يوجد كثير من القناني المليئة والفارغة، ولو فعلت ذلك لما لاحظ أحد شيئاً. ذلك لأن الإيزيرين لا تظهر له أعراض أو آثار على جثة الميت، وكل ما حدث في هذه القضية أن الطبيب فحص محتويات القنينة التي حقن منها ليونيدس لكي يتحقق مما إذا كان الأنسولين مركزاً أكثر مما ينبغي فاكشف أن المادة التي بالقنينة ليست أنسولين.

فقلت: يخيل إليّ أن الزوجة الشابة إما ذكية جداً أو غبية جداً.

- هل تعني...

- أعني أنها ربما اعتقدت أنكم لن تظنوا أن القاتل يمكن أن يكون على هذه الدرجة من الغباء بحيث لا يبادر إلى استبدال القنينة التي تحتوي السم بأخرى تحتوي على الأنسولين. هل هناك احتمالات أخرى يا سيد تافرير؟ أعني هل تحوم الشبهات حول شخص آخر؟

تصدى أبي للإجابة على هذا السؤال فقال: من الناحية العملية جميع أفراد الأسرة تحوم حولهم الشبهات، فاليبت لم يخلُ قط من رصيد الأنسولين الذي يكفي لأسبوعين، ولم يكن أيسر من ملء إحدى القناني بالإيزيرين ووضعها مع قناني الأنسولين والانتظار حتى تستخدم في أحد الأيام.

- وهل صيدلية البيت في متناول الجميع؟

- إنهم لا يغلقون صندوق العقاقير، وقناني الأنسولين مرتبة به في صف واحد، والصندوق نفسه في الحمام.

- والدافع إلى الجريمة؟

تنهد أبي وأجاب: يا عزيزي تشارلز! إن ليونيدس كان واسع الثراء. صحيح أنه أعطى ذويه كثيراً من المال ولكن يحتمل أن يكون أحدهم أو بعضهم قد طمع في المزيد.

- ويحتمل أن يكون هذا الطامع هو أرملة. ولكن صديقتها، هل هو غني؟

فأجاب تافرnr: إنه أفقر من فأر الكنيسة.

ولفت نظري هذا التشبيه، وتذكرت فجأة أغنية الأطفال التي رددت صوفيا مقطوعة منها: "كان رجل أعوج يسير في طريق أعوج، فوجد بيتاً أعوج على حافة قناة عوجاء، وفي البيت كانت قطة عوجاء قد اصطادت فأراً أعوج، فعاش ثلاثهم معاً في البيت الأعوج الصغير".

* * *

سألت تافرnr: ماذا كان انطباعاتك عن السيدة ليونيدس الشابة؟ ما رأيك فيها؟

ففكر تافرnr طويلاً قبل أن يجيب: ليس من السهل معرفة امرأة من هذا الطراز. إنها هادئة جداً ووديدة جداً، ولكن من المتعذر معرفة ما يدور بخلدها. كل ما أستطيع أن أقوله هو أنها

مولعة بالتترف والحياة الرغدة، وقد ذكرني مرآها بقطعة خاملة مدللة. ولكن هذه الأوصاف لا تقدم ولا تؤخر، إن ما نحتاج إلى هو الدليل.

وكنت أرى هذا الرأي. إن ما نحتاج إليه هو الدليل على أن السيدة ليونيدس الشابة سممت زوجها. كانت صوفيا تريد هذا الدليل وكذلك تافرر وأنا، فإذا وضعنا أيدينا على هذا الدليل ظهرت واستقامت الأمور. المشكلة هي أن صوفيا لم تكن واثقة من شيء وكذلك تافرر وأنا.

* * *

في اليوم التالي ذهبت مع تافرير إلى البيت ذي القعب الثلاث. كان موقفي عجبياً، أو على الأقل غير مألوف. كنت في بداية الحرب أعمل في المخبرات بإدارة مكافحة الجاسوسية وكان في استطاعتي عند الضرورة أن أزعم أنني شرطي، أما الآن فالموقف يختلف تماماً. كان أبي قد قال لي في الليلة السابقة: إذا أردنا أن ننجح في حسم هذه القضية فيجب علينا أن نبدأ من الداخل وأن نعرف كل شيء عن أفراد الأسرة، وإذا كان هناك إنسان يستطيع موافاتنا بالمعلومات التي نريدها فهو أنت.

فلم أتمالك من الشعور بالاستياء وأجبت: معنى ذلك أن أعمل جاسوساً؟ إنني أحب صوفيا وأعتقد أنها تحبني، فكيف أستغل هذا الحب للتسلل بين أفراد الأسرة والبحث عن أسرارهم؟

فهز أبي كتفيه وقال بشيء من الضيق: لا تنظر إلى الأمور بطريقة أصحاب الحوانيت الصغيرة، هل ترتاب في أن تكون قد قتلت جدها؟

- أنا واثق من أنها لم تقتله.

- ذلك رأيي أيضاً، ولكن ثمة شيء مؤكد هو أنك لن تقترن بهذه الفتاة طالما القضية لم تحل وطالما أن الشك يحوم حول كل فرد من أفراد الأسرة. وهذه الجريمة من الجرائم التي قد لا تصل يد العدالة إلى مرتكبيها، ومن المحتمل أن تتحول ريبتنا في الأرملة وصديقها إلى يقين ولكننا نجد أنفسنا رغم ذلك عاجزين عن عمل شيء لأننا لا نملك الدليل. نحن حتى هذه اللحظة لا نستطيع أن نوجه إليها أي اتهام، هل فهمتني؟

- نعم، ولكن...

غير أنه لم يكلف نفسه عناء الإصغاء إليّ ومضى يقول: ليس من الأفضل في هذه الحالة أن تعرض الموقف على صوفيا بوضوح وتستطلع رأيها؟

وهكذا ذهبت مع المفتش تافرير والضابط لام لزيارة البيت ذي القبب الثلاث، واخترقت بنا السيارة ساحة الجولف المترامية أمام البيت. كانت صوفيا قد وصفت البيت بأنه أعوج، وقد وجدت عندما وقع بصري أن ذلك أصدق وصف له. لم يكن بيتاً ذا قبب ثلاث كما أسموه، فقد أحصيت إحدى عشرة قبة يتألف منها منظر عجيب. كان البيت أشبه بنبات شيطاني برزت أغصانه في كل اتجاه بلا نظام!

قال المفتش تافرير وهو يتأمل البيت: بيت غريب ليس كذلك؟ ولكنه مؤث كأفخم القصور العصرية.

ولم يتسع لي الوقت للإجابة، فقد رأيت صوفيا تخرج من الباب الرئيسي، وما أن وقع بصرها عليّ حتى هتفت: أنت؟

فأجبت: نعم، هل أستطيع التحدث إليك؟

فترددت لحظة قبل أن تتخذ قراراً، ثم أوامأت إليّ أن أتبعها. سارت بي في الحديقة إلى مقعد خشبي بين الأشجار وهناك دعنتني إلى الجلوس بجوارها وقالت وهي تنظر بعيداً: حسناً؟

لم يكن في صوتها ما يشجع، ولكنني تحدثت إليها بصراحة وإسهاب. وأصغت إليّ باهتمام حتى فرغت من حديثي، ثم تنهدت وقالت: إن أباك رجل حكيم.

- هذه فكرته، وأنا شخصياً لا أقره عليها.

- إنها فكرة وجيئة، ولعلها الوسيلة الوحيدة للوصول إلى نتيجة. إن أباك يفهم وجهة نظري أكثر مما تفهمها أنت يا تشارلز. إنه ليهمني جداً أن أعرف الحقيقة.

- من أجل مستقبلنا؟ إنها لن تقدم أو تؤخر بالنسبة إلينا.

- ليس من أجل مستقبلنا فقط يا تشارلز. أنا لم أجسر على مصارحتك بالحقيقة أمس. الحقيقة هي إنني أشعر بالخوف.

- الخوف؟!!

- نعم، الخوف. إن القاتل على ما تعتقد الشرطة، ويعتقد أبوك، وتعتقد أنت هو بريندا زوجة جدي.

- جميع القرائن...

- هذا صحيح، ولكنني عندما أقول إن بريندا هي القاتلة أشعر بأنني لا أعبر عما أعتقد، وإنما أعبر عما أتمناه.

- هل تظنين أن...-

- أنا لا أظن شيئاً ولكني أشعر في قرارة نفسي بأن بريندا ليست المرأة التي تجازف بارتكاب جريمة كهذه، إنها أعقل وأبعد نظراً من أن تفعل ذلك.

- على فرض أنك على صواب، فما قولك في لورانس براون، الشاب الوثيق الصلة بها؟

- لورانس الشاب؟ إنه أخوف من أرنب!

- من أدراك؟

- الواقع إن أحداً لا يستطيع أن يجزم بشيء. فنحن كثيراً ما نخدع بالظواهر، ولكني مع ذلك لا أعتقد أن بريندا قد ارتكبت الجريمة. لقد خلقت لتعيش زوجة لأحد الأثرياء، فهي تحب الترف والحياة الناعمة، تحب الجلوس طول الوقت على أريكة مريحة وتحب أكل الحلوى وارتداء الثياب الجميلة والمجوهرات الثمينة وقراءة القصص والاختلاف إلى الملاهي ودور السينما... هذه هي الحياة المثالية بالنسبة إليها. وأستطيع أن أضيف إلى ذلك أنها كانت تحب جدي رغم فارق السن بينهما، ولا بد أنه كان يشعرها بأنها كالمحظية المفضلة في حريم السلطان! كان رجلاً عجيباً ذا قدرة مذهلة على اجتذاب قلوب النساء، ولا أظن أن الشيخوخة قد أضعفت مواهبه في هذا الصدد.

- قلت منذ لحظة إنك تشعرين بالخوف، لماذا؟

فأجابت بصوت خافت: لأن هذه هي الحقيقة. والأمر الذي أريدك أن تعرفه هو أننا أسرة غريبة تتألف من أفراد قساة القلوب، ولكنها قسوة تختلف من حيث الشدة والنوع باختلاف الأشخاص.

ولا بد أنها لاحظت من قسماات وجهي مبلغ دهشتي مما سمعت فاستطردت قائلة: سأوضح لك ما أعني. إليك مثلاً جدي: لقد حدثنا ذات يوم كيف أنه قتل بخنجره رجلين في وطنه لمجرد الظن بأنهما تعمدا إهانته. قال لنا ذلك ببساطة كما لو كان قتل رجلين مسألة تافهة لا تستحق الندم أو التفكير. كذلك كانت جدي امرأة جامدة العاطفة، نشأت بين صيادي الثعالب الذين لا يعرفون الرحمة فيما يتصل بالشرف ولا يتورعون عن قتل أقرب الناس إليهم برصاصة من بنادقهم لأنفة الأسباب، فورثت صفاتهم وتطبعت بطباعهم.

- أأست تبالغين في رسم هذه الصورة القاتمة لذويك؟

- كلا. إن الإنسان يستطيع أن يكون شريفاً ومجرداً من الرحمة في ذات الوقت، ولكن أأمي تختلف عن الآخرين. إنها لطيفة ولكنها أنانية إلى حد يثير فزعني في بعض الأحيان. أما كليمنسي، زوجة روجر، فإنها لا تعيش إلا لأبحاثها العلمية المعقدة وتتمتع ببرود غير طبيعي وغير إنساني على عكس زوجها، فهو رجل لطيف دمث الأخلاق ولكن إذا غضب تحول إلى شيطان مريد، وأما أأبي...

وصممت لحظة ثم قالت: وأما أأبي فإنه يعرف كيف يتحكم في مشاعره بحيث لا يستطيع أحد أن يتنبأ بما يدور

بخلده أو يعتمل في قرارة نفسه ، ولكنه يثير قلقي ومخاوفي في كثير من الأحيان.

- هل أفهم من هذا أن كل فرد في أسرتك يستطيع ارتكاب جريمة قتل؟

- نعم ، وأنا مثلهم.

- أنت؟!

- ولم لا؟ أشعر أحياناً بأنني أستطيع أن أقتل إنساناً.

وصمتت قليلاً ثم أردفت: ... إذا كان يستحق القتل.

فضحكت على الرغم مني ، وابتسمت صوفياً وقالت: ربما كنت حمقاً. المهم أن أميط اللثام عن الحقيقة وأن نعرف من الذي قتل جدي. آه ، حبذا لو كانت بريندا هي القاتلة!

وفجأة اتجه تفكيري إلى بريندا وشعرت نحوها بالعطف والإشفاق.

* * *

رأيت سيدة طويلة القامة تقبل نحونا بخطى سريعة فقالت صوفيا في همس: ها هي الخالة إديث.

اقتربت الخالة فنهضت واقفاً، وقالت صوفيا تقدم كلاً منا إلى الآخر: أقدم إليك تشارلز هيوارد يا خالتي. هذه خالتي الأنسة دي هافيلاند يا تشارلز.

كانت إديث دي هافيلاند تناهز السبعين وقد خط الشيب شعرها ولوحت الشمس بشرتها. وسألتي وهي تحملق في وجهي بفضول: كيف حالك يا سيد هيوارد؟ لقد سمعتهم يتحدثون عنك ويبدو أنك قادم من الشرق، هل أبوك بخير؟
- نعم، شكراً لك.

- لقد عرفته وهو طفل، وكنت كذلك أعرف والدتك، إنك قريب الشبه بها. هل جئت لمساعدتنا أو لعكس ذلك؟
فأحسست بالحرج وأجبت: أرجو أن أكون فائدة لكم.

فأومأت برأسها علامة الرضا وقالت: هذا حسن، البيت يعج برجال الشرطة، إنهم يبحثون في كل ركن ولبعضهم وجوه بغیضة ونظرات شريرة.

ثم قالت: إن ناني تبحث عنكِ لتعدي السمك.

فصاحت صوفيا: يا إلهي! كدت أنسى، سأذهب إليها فوراً.

وانطلقت مسرعة في الطريق إلى البيت وسرنا في أثرها ببطء. قالت العجوز: لولا ناني لضعنا جميعاً. إنها الإخلاص مجسداً، وهي تضطلع بكافة الأعمال، تغسل الثياب وتطهو الطعام وتدير شؤون البيت. إنها خادمة لا مثيل لها في هذه الأيام، وأنا التي اخترتها منذ أعوام كثيرة.

وانحنت بسرعة لتلتقط حشرة علقت بذيل ثوبها، ثم اعتدلت وقالت: أود أن أصارحك يا تشارلز هيوارد بأن هذا الحادث قد ضايقني كثيراً. أرجو أن تذكر لي وجهة نظر الشرطة، أعرف أنه لا يحق لك أن تذكرها ولكنني من ناحيتي لا أتمالك نفسي من الشعور بالألم كلما فكرت في أن أرسيتيد قد مات مسموماً، بل وأتألم لمجرد التفكير في أنه قد مات. أنا لم أكن أحبه ولكنني لا أستطيع أن أتصور أنه مات... لقد أصبح البيت بدونه خاوياً.

ولاحظت أن إديث هافيلاند تريد أن تفضي ببعض ذكرياتها فلزمت الصمت. قالت: لقد جئت إلى هذا البيت منذ أكثر من أربعين عاماً، جئت عقب وفاة أختي وتلبية لرغبة أرسيتيد. كانت أختي قد تركت له سبعة أولاد لا يزيد عمر أصغرهم عن عام، فلم أشأ أن أترك أمر تربية هؤلاء الصغار لهذا الرجل اليوناني. أفلم أكن على حق؟ صحيح أن أختي مارشيا قد أخطأت بزواجها من هذا الأجنبي، ولكنني كنت

أشعر دائماً بأن هذا الرجل الفظ الدميم لا بد أنه قد سحرها بطريقة ما، وإحفاقاً للحق أقول إنه أطلق لي يدي وحرية العمل فهيات للأولاد الخدم والمربيات والطعام الجيد ولم أطعمهم قط ذلك الأرز المقيت المطهو بالتوابل الذي يحبه أبوهم.

- وهل بقيت معهم حتى بعد أن كبروا؟

- نعم. وقد يبدو ذلك عجيباً، ولكن هذا ما حدث. وأعتقد أنني قد بقيت حياً في الحديقة، وأيضاً من أجل فيليب. إن الرجل الذي يقترن بممثلة لا يستطيع أن يزعم أن له زوجة وبيتاً، وإنني لأساءل: لماذا تلد الممثلات؟ إنهن يتركن أولادهن وينطلقن للتمثيل في دبلن أو جلاسجو أو في أقصى الأرض، ولكني أعتقد أن فيليب قد أحسن صنعاً حين قرر الإقامة هنا مع كتبه.

- ما هي مهنته؟

- إنه يكتب، ولا أعلم لماذا؟ فلا أحد يقرأ كتبه التي يسجل فيها أحداثاً تاريخية لا تهتم أحداً، هل قرأت له؟

أجبت سلباً، فاستطردت قائلة: مصيبة فيليب أنه يملك أموالاً طائلة، ولو كان بحاجة إلى قوت يومه لبحث عن عمل جاد.

- وهل يربح كثيراً من كتبه؟

- ذلك أعجب ما في الأمر، فبعض الناس يعتقدون أنه حجة في حقبة من حقبات التاريخ. بيد إنه ليس بحاجة إلى أرباحه من الكتب، فقد أراد أرسيتيد الإفلات من الضرائب

وخاصة ضريبة التركات فمنح أولاده مبالغ طائلة تؤمن مستقبلهم، وكان نصيب فيليب بضع مئات من آلاف الجنيهات. أما أخوه روجر فقد أسند إليه أرستيد إدارة الشركة المتحدة للمواد الغذائية، وأما صوفيا وجوزيفين وأوستاش فإن لكل منهم إيراداً لا بأس به من ريع الأسهم والسندات التي أودعت بأسمائهم.

- هل معنى ذلك أن موت الجد لا يفيد شخصاً بذاته؟
- هل تهزل؟ إنه يفيدهم جميعاً ويعود على كل منهم بمزيد من المال.

- من تظنينه سمّم أرستيد ليونيدس يا سيدة دي هافيلاند؟
هل لديك فكرة؟

فأجابت دون أن تتردد: ليست لدي أية فكرة وذلك ما يضايقني، لأنني لا أحب أن أتصور أن بين أفراد الأسرة قاتلاً. ولكنني أعتقد أن رجال الشرطة يشتبهون في بريندا المسكينة.

- أرى أنك تتكلمين بلهجة من يعتقد أن هذا الاشتباه في غير موضعه.

- الواقع أنني لا أعلم شيئاً، فقد كنت دائماً أنظر إلى بريندا كامرأة غبية ضحلة، وما هكذا في تصوري تكون المرأة التي تقتل بالسم. ومع ذلك فإن الإنسان حين يرى امرأة في الرابعة والعشرين من عمرها تقترن برجل تجاوز الثمانين لا يسعه إلا الاعتقاد بأن المرأة تسعى وراء المال، ومن المحتمل بطبيعة الحال أن تكون بريندا قد قالت لنفسها عقب الزواج إن

زوجها لن يعيش طويلاً وإنما ستصبح عما قريب أرملة ثرية. لكن أرسيتيد كان قوي البنية صلب العود، فلم يهزمه مرض السكر وكان من المتوقع أن يعيش حتى يبلغ المئة عام. فمن المحتمل أن تكون بريندا قد سئمت الانتظار.

- إذا صح ذلك...

لم تدعني الأنسة دي هافيلاند أتم عبارتي وقاطعتني قائلة: إذا صح ذلك كان لنا ما نرجوه جميعاً. صحيح أن الناس سيتكلمون، ولكن بريندا في الواقع ليست من صميم الأسرة.

- أليست لديك أية نظرية أخرى؟

- كلا.

ترى هل قالت الأنسة دي هافيلاند كل ما عندها؟ أظن أنها تعرف أكثر مما ذكرت. ومن يدري، فلعلها هي التي سممت أرسيتيد ليونيدس! ولم لا؟ لقد رأيتها منذ لحظة تنتزع الحشرة من ذيل ثوبها بحزم وقسوة، مما ذكرني بقول صوفيا إن كان كل من في هذا البيت قادر على ارتكاب جريمة قتل... بشرط أن تكون هناك أسباب وجيهة تبرر الجريمة. ترى ماذا كان لدى إديث دي هافيلاند من أسباب؟ كان لا بد لي أن أعرف المزيد عن هذه العجوز لكي أستطيع الإجابة على هذا السؤال.

* * *

كان باب البيت مفتوحاً، فدخلنا واجتزنا بهواً فسيحاً ثمين الأثاث لا ينتهي بدرج كما هو مألوف وإنما بجدار ضخم في وسطه باب. قالت الأنسة دي هافيلاند: هذا الباب يؤدي إلى الجناح الخاص بأرستيد وزوجته، أما فيليب وماجدا فيقيمان في الطابق الأول.

وانحرفنا يساراً في دهليز طويل ينتهي بدرج يؤدي إلى الطابق الأول، ودخلنا قاعة استقبال أنيقة ذات أثاث رصين وستائر ثمينة وتزينها أصص الزهور بعض الممثلين والممثلات. قالت الأنسة دي هافيلاند: أعتقد أنك تود أن ترى فيليب.

فسألت نفسي: هل أود حقاً أن أراه؟ لقد وافقت على الخطة التي رسمها أبي، وجئت لمقابلة صوفيا وقد قابلتها... لشد ما أحتاج إليها الآن لترشدني إلى ما ينبغي عمله. هل أقابل فيليب ليونيدس بصفتي صديق ابنته؟ أو أقابله كشخص يريد التعرف به لسبب اختراعه؟ أو بصفتي من أعوان الشرطة؟ لقد ألفت عليّ السؤال تأدباً وهي تعلم أن إجابتي لن تجدي شيئاً.

- إنه في قاعة المكتبة، فهلم بنا إليه.

واجتزنا دهليزاً آخر، ودخلنا من باب لنجد الكتب من

الأرض إلى السقف، كان ثمة كتب في كل مكان، فوق الموائد وعلى المقاعد وعلى الأرض، ولكنها لا توحى إلى الناظر بوجود فوضى. وكان جو الغرفة رطباً وقد افتقدت فيه رائحة كنت أتوقعها هي رائحة التبغ، ومن الأكيد أن فيليب ليونيدس لم يكن يدخن.

* * *

كان جالساً أمام مكتبه فنهض واقفاً حالما دخلنا، ورأيت رجلاً يناهز الخمسين من عمره طويل القامة على جانب كبير من الوسامة. لقد أجمع الذين حدثوني عن أرسيد ليونيدس على أن الرجل كان دميماً غاية الدمامة فلم أتوقع أن أرى لابنه هذا الوجه الوسيم بقسماته الجميلة واستدارته المنتظمة وأنفه المستقيم وجبينه المرتفع في إطار من شعر غزير خطه الشيب.

وقدمتني إليه إديث دي هافيلاند فشد على يدي بحرارة وسألني ببساطة عن صحتي، ولكنني أحسست رغم ذلك بأن أمري لا يهمه، وأزعجني ذلك إلى حد ما.

قالت الآنسة دي هافيلاند تحدثه: أين إذن رجال الشرطة؟ ألم يأتوا لمقابلتك؟

فأجاب وهو ينظر إلى بطاقة على مكتبه: إنني أنتظر قدوم المفتش تافرر بين لحظة وأخرى.

- وأين هو الآن؟

- لا أعلم يا خالتي، ربما كان في الطابق الأول.

- مع بريندا؟

- أوكد لك إنني لا أعلم.

ولم يكن في مظهر فيليب ليونيدس ما يوحي بأنه يمكن أن يتورط في ارتكاب جريمة.

- وهل استيقظت ماجدا؟

- لا أعلم، إنها قلما تستيقظ قبل الحادية عشرة.

- يخيل إليّ أنني أسمع صوتها.

والواقع إنني سمعت صوتاً ثاقباً يقترب بسرعة، ثم رأيت سيدة تدخل الغرفة، أو على الأصح تفتحمها. كانت تدخن من خلال فلتر طويل عضت عليه بأسنانها وتضم بيدها ثوباً طويلاً وردي اللون، بينما انسدل شعرها الأشقر الطويل على كتفيها. نظرت إلينا بعينين زرقاوين واسعتين وانطلقت تتكلم بسرعة وبصوت أجش لا يخلو من عذوبة وهي تنطق بالألفاظ نطقاً سليماً. قالت: كلا يا عزيزي، لم أعد أطيق كل هذا! إن أعصابي تتمزق كلما فكرت فيما سوف تكتبه الصحف. صحيح أنها لم تنشر شيئاً بعد ولكنها ستبدأ حتماً عما قريب. ثم إنني لا أعلم ماذا يجب أن أرتدي خلال التحقيق. أظن أنه ينبغي أن أبتاع ثوباً خاصاً لهذه المناسبة، ولكن رجال الشرطة سوف يتعقبونني إذا خرجت، ومن يدري ماذا سيعتقدون؟ إنني أعجب لك يا فيليب كيف تستطيع مواجهة الأمور بمثل هذا الهدوء! ألا تعلم أنه محظور علينا أن نغادر البيت؟ أي عار أكبر من هذا! يا إلهي، كم أشعر بالحزن كلما فكرت في ذلك العجوز العزيز المسكين وكيف كان يغمرنا بعطفه رغم أفعال تلك المرأة الشريرة ورغم

سعيها بالوقية بيننا وبينه! لو أن مؤامرتها نجحت وغادرنا البيت لحققت كل أهدافها. تصور رجلاً مسكيناً في الثمانين من عمره وحيداً في براثن مخلوقة كهذه! إن من حق أسرته أن تجزع وأن تخشى العواقب. وبهذه المناسبة، أظن أن هذا هو الوقت المناسب لظهور المسرحية التي وُضعت عن إديث تومسون، تلك الزوجة الغادرة التي اتفقت مع عشيقها على قتل زوجها. إن جريمة بريندا ستكون إعلاناً هائلاً للمسرحية ودور إديث تومسون يناسبني تماماً. يزعم البعض إنني أصلح لأدوار الكوميديا ولكنني أعرف كيف سأستغل النص في هذه المسرحية، سألعب الدور في هدوء وبساطة إلى أن...

وفجأة لوحت بساعديها فتسببت هذه الحركة في سقوط سيجارتها على المكتب، فتناول فيليب السيجارة في هدوء وأطفأها وألقى بها في سلة المهملات. واستطردت ماجدا قائلة بلهجتها المسرحية: إلى أن تحين اللحظة التي سأجعل فيها فرائص المشاهدين ترتعد من الرعب...

وانقلبت سحتها ذعراً واتخذ وجهها صورة تختلف تماماً عن صورة امرأة ملكٍ عليها الهلع كل حواسها، ثم انبسطت أسارير وجهها ونظرت إليّ وسألتنى: أما كذلك يجب أن يؤدي الدور؟ فأجبتها بإيجاب رغم أنني لم أكن أعرف شيئاً عن المسرحية أو عن إديث تومسون، ولكنني كنت شديد الحرص على كسب مودة والدة صوفيا.

قالت: إن إديث تومسون تشبه بريندا إلى حد كبير، يا إلهي! كيف لم أظن من قبل إلى هذه الحقيقة ذات الدلالة الخطيرة، لعل من الخير أن ألفت نظر مفتش الشرطة.

فقال فيليب: هل من الضروري أن تقابلي مفتش الشرطة
يا ماجدا؟ سأفضي إليه بكافة المعلومات التي يريدها.

ولكنها صاحت محتجة: بل من الضروري جداً أن أقابله
وأحدث إليه أيها العزيز. إنك تفتقر إلى الخيال وتفوتك
ملاحظة التفاصيل الصغيرة الهامة، ويجب أن يعرف المفتش
بكل دقة ووضوح جميع الأمور التافهة التي لاحظها بعضنا
وبدت في حينها غامضة مبهمة.

ودخلت صوفيا في هذه اللحظة وسمعت حديث أمها
فقالت: ماذا تقولين يا أمها؟ لا شك أنك لا تريدين أن تسردني
على المفتش مجموعة من الأكاذيب؟

- ولكن يا صوفيا، يا حبيبتي!

- إنني أعرف ما يدور في خلدك وأعرف الدور الرائع
الذي أعددت نفسك لتمثيله، ولكنني أؤكد لك أنك على خطأ.
- ماذا تعرفين أنت عن...

- إنني أعرف ما يجب أن تفعله. تكلمي بإيجاز واحتفظي
بمعلوماتك لنفسك وكوني على حذر واحمي الأسرة.

بدت على وجه ماجدا من دلائل الحيرة مثل ما يبدو على
وجوه الأطفال وقالت: إذن أنت تعتقدين حقاً أن...
- نحن لا نعرف شيئاً مؤكداً. هذا هو المبدأ.

ورأت صوفيا الابتسامة التي ارتسمت على شفتي أمها
فاستطردت قائلة: لقد أعددت لك كوباً من الكاكاو. إنه في
انتظارك على المائدة في قاعة الاستقبال.

- أحسنت صنعاً أيتها العزيزة، إنني أكاد أموت جوعاً.

وسارت ماجدا إلى الباب، وهناك نظرت وراءها وقالت
وأنا لا أعلم هل كانت توجه الحديث إليّ أم إلى صفوف
الكتب خلفي: أنت لا تعلم مبلغ سعادة الأم حين تكون لها ابنة
تحبها.

ثم خرجت، فتنهدت الآنسة دي هافيلاند وقالت: الله
وحده يعلم ماذا ستقول لمفتش الشرطة.

فقالت صوفيا: اطمئني، سيكون كل شيء على ما يرام.

- إنها خليقة بأن تحكي أي شيء.

- كلا يا خالتي، إنها ستطيع تعليمات المخرج،
والمخرج في هذه المسرحية هو أنا.

قالت ذلك وخرجت لتلحق بأمها، ولكنها ما لبثت أن
عادت على الأثر لتعلن إلى أبيها أن المفتش تافرير يرغب في
مقابلته، واستطردت قائلة: أرجو ألا تجد غضاضة في أن
يشهد تشارلز هذا اللقاء بينك وبين المفتش.

ودهش فيليب ليونيدس، ولكنه أجاب بأن الأمر سيان
عنده. وبعد لحظة دخل تافرير بجسمه الضخم وخطواته الثابتة.

وكانت الأنسة دي هافيلاند أول من تكلم فقالت: هل أنت بحاجة إليّ يا سيدي المفتش؟

- ليس الآن يا آنسة، ولكن فيما بعد إذا سمحت لي ببعض دقائق من وقتك.

- بكل تأكيد، وسوف تجدني في الطابق الأول.

وخرجت، وجلس تافرر وعاد فيليب ليونيدس إلى مقعده خلف المكتب.

- أعلم أنك رجل كثير المشاغل يا سيد ليونيدس، ولكنني لن أثقل عليك طويلاً. لقد رأيت من واجبي أن أثبتك بأن شكوكنا قد تحققت وأن أباك لم يمت ميتة طبيعية، وإنما مات مسموماً بجرعة كبيرة من المادة المعروفة باسم الإيزيرين.

فأوماً فيليب برأسه علامة الموافقة ولم يبد عليه شيء من دلائل الانفعال. وقال المفتش: هل ما ذكرته لك الآن يوحى إليك بأية فكرة؟

- كلا، واعتقادي هو أن أبي قد ذهب ضحية خطأ مؤسف.

- أتعتقد ذلك حقاً؟

- إن الأمر واضح وحدوثه محتمل، ولا تنس أن أبي قد كان في العقد الثامن من عمره وأن قوة إبصاره قد ضعفت كثيراً.

- تعني أنه ربما خلط بين الأنسولين والإيزيرين فسكب محتويات قنينة إحدى المادتين في قنينة المادة الأخرى؟ هل

ترى ذلك ممكناً؟

صمت فيليب ليونيدس ولم يجب، فقال تافرير: لقد
عثرنا على قنينة الإيزيرين ولم نجد عليها أية بصمات، وهذا
أمر يبعث على الدهشة. إذ كان ينبغي أن نجد عليها بصمات
أبيك أو بصمات زوجته أو خادمه.

فرجع فيليب رأسه وقال: الواقع أن هذا صحيح، ولكن
هل فكرت في أمر الخادم؟

- هل تريد أن تقول إن الخادم جونسون ربما يكون هو
القاتل؟ إنني أوافقك على أنه كان بوسعه أن يرتكب الجريمة
ولكن ماذا يدفعه إلى ارتكابها؟ لقد كان أبوك يعطيه منحة سنوية
تزداد عاماً بعد عام، وكان يصارحه بأن هذه تعوضه عما كان
ينبغي أن يوصي له به بعد موته، ومن هذا يتبين لك أنه كان من
مصلحة جونسون أن يعيش أبوك أطول مدة ممكنة لأن المنحة
السنوية التي يحصل عليها تزداد عاماً بعد عام. يضاف إلى ذلك
أن التفاهم كان تاماً بين أبيك وخادمه وأنه ليس في ماضي
الخادم ما يثير الريبة، فهو خادم مخلص يعرف عمله وواجباته.

وصمت قليلاً ثم استطرد قائلاً: إننا لا نرتاب في
جونسون.

فأطرق فيليب برأسه ولم يتلکم. وقال المفتش: هل تستطيع
أن تذكر لي يا سيد ليونيدس ماذا فعلت يوم مات أبوك؟

- طبعاً أيها المفتش. أنا لم أبرح هذه الغرفة طول النهار
فيما عدا وقت تناول الطعام.

- ألم ترَ أباك في ذلك اليوم؟
- لقد ذهبت إليه بعد الإفطار لأحييه تحية الصباح كما تعودت أن أفعل كل يوم.
- هل وجدته بمفرده؟
- كانت زوجته معه في الغرفة.
- هل كان يبدو كما تعودت أن تراه؟
- فأجاب فيليب بشيء من السخرية إن أباه لم يكن يبدو وكأنه يتوقع اغتياله في ذلك اليوم.
- هل كان أبوك يقيم في جناح مستقل تماماً؟
- نعم، ولا سبيل للوصول إلى هذا الجناح إلا عن طريق الباب الموجود بالبهو.
- هل يغلق هذا الباب بالمفتاح؟
- كلا.
- أبداً؟
- أبداً، على قدر ما أعلم.
- إذن فالمرور مباح من وإلى الجناح الخاص بأبيك؟
- نعم.
- كيف علمت بنبأ الوفاة؟
- جاء أخي روجر الذي يقيم في الجناح الغربي من الطابق الأول، جاء إلى مكنتي وهو يعدو وقال لي إن أبي يشعر

بانهيار ويتنفس بصعوبة وإنه يبدو في حالة سيئة.

- وماذا فعلت؟

- اتصلت تليفونياً بالطبيب، وذلك ما لم يفكر فيه أحد، ولكنني لم أجدته فتركت له رسالة بأن يحضر بأسرع ما يستطيع. ثم صعدت إلى الطابق الأول فوجدت أبي في حالة سيئة فعلاً. وقد توفي قبل حضور الطبيب.

كان يتكلم وليس في صوته أي أثر للانفعال كمن يروي حادثة لا صلة له بها من قريب أو من بعيد.

- وأين كان باقي أفراد الأسرة؟

- كانت زوجتي في لندن وقد عادت بعد قليل، وأظن أن صوفيا كذلك لم تكن في البيت. أما جوزيفين وأوستاش فكانا في غرفتهما.

- أرجو ألا تستاء يا سيد ليونيدس إذا أنا سألتك عن مدى تأثير موت أبيك على مركز المالي.

- أنا أعلم جيداً يا سيدي المفتش أن هذه أمور يهملك أن تعرفها. لقد حرص أبي منذ سنوات عديدة على أن يؤمن مستقبلنا ويكفل لكل منا استقلاله المالي، فجعل من أخي المدير والمساهم الرئيسي في أكبر وأهم شركاته، وهي الشركة المتحدة للمواد الغذائية، وأعطاني من المال والسندات ما يوازي نصيب أخي في الشركة، أي نحو مئة وخمسين ألفاً من الجنيهات أستطيع التصرف فيها كما أريد.

- وهل بقيت له بعد هذه المنح والهبات ثروة جسيمة؟

- كلا، فهو لم يحتفظ لنفسه إلا بإيراد متواضع يكفي
-على حد قوله- لإثارة اهتمامه بالحياة.

وابتسم لأول مرة واستطرد قائلاً: بعد ذلك زاول كثيراً من
الأعمال المختلفة وأثرى مرة أخرى، بل لقد أصبح أكثر ثراء
مما كان في أي وقت مضى.

- عندما قررت أنت وأخوك الإقامة هنا، هل كان ذلك
بسبب بعض المتاعب المالية؟

- كلا. لقد قررنا ذلك لأن الإقامة هنا تطيب لنا ولأن أبي
قال مراراً وتكراراً إنه يسعده أن نعيش معه تحت سقف واحد،
وبصرف النظر عن حبي الخالص لأبي فقد كان لديّ من
الأسباب الشخصية ما حملني على الإقامة مع الأسرة، فجئت
إلى هنا في سنة ١٩٣٧ ولحق بي أخي في سنة ١٩٤١ عندما
هدمت القنابل بيته في لندن.

- هل لي أن أسألك يا سيد ليونيدس عما إذا كانت لديك
أية فكرة عن مضمون وصية أبيك؟

- إنني أعرف جيداً ما جاء بالوصية. لقد أعاد كتابتها في
سنة ١٩٤٥ عقب انتهاء الحرب. جمعنا في مكتبه فيما يشبه
المجلس العائلي وطلب إلى محاميه السيد جيتسكيل أن يتلو
علينا الوصية، وأعتقد أن هذا المحامي قد أبلغك مضمونها.
لقد أوصى فيها لأرملته بمئة ألف جنيه خالية من الضرائب،
وقسم ما تبقى من ثروته إلى ثلاثة أقسام، أحدها لي والآخر
للأخي والثالث لأولادي الثلاثة، صوفيا وجوزيفين وأوستاش.

- ولم يوصِ بشيء للخدم أو للمؤسسات الخيرية؟
- لا، ولكنه كان يعطي الخدم منحاً سنوية تتزايد عاماً
بعد عام.

- معذرة عن هذا السؤال يا سيد ليونيدس، هل أنت
حالياً في مأزق مالي؟

- أنت تعلم يا سيدي المفتش أن الضرائب باهظة، ولكن
إيرادي يكفيني ويزيد. وقد كان أبي سخياً معنا كل السخاء،
وعند الضرورة لم يكن يحجم عن معونتنا. ثم أردف قائلاً
بصوت هادئ: في استطاعتي أن أثبت لك بالدليل أيها المفتش
أنه ليست هناك أية أسباب مالية تجعلني أتمنى موت أبي.

- يؤسفني يا سيد ليونيدس أن أكون قد أشعرتك بأنني
أفترض غير ذلك، ومن سوء الحظ أن مقتضيات التحقيق
تلجئني إلى إلقاء أسئلة شخصية جداً كالسؤال الذي سألقيه
عليك الآن والخاص بالعلاقة بين أبيك وزوجته: هل كانت
العلاقة بينهما حسنة؟

- كانت حسنة جداً على قدر ما أعلم.

- هل كانا يتشاجران؟

- لا أظن ذلك.

- هل كان بينهما فارق كبير في السن؟

- نعم.

- هل وافقت على زواج أبيك من زوجته الثانية؟

- إنه لم يستطلع رأيي.
- هذه ليست إجابة يا سيد ليونيدس.
- ما دمت تصر فأعترف لك بأنني كنت أنظر إلى هذا الزواج على أنه خطأ.
- هل قلت ذلك لأبيك؟
- لم أعلم بأمر الزواج إلا بعد أن أصبح حقيقة.
- أظن أن النبأ كان صدمة لك؟
- صمت فيليب ولم يجب، وقال تافرير: وهل غضبت من أبيك بسبب هذا الزواج؟
- لقد كان حراً وله أن يفعل ما يشاء.
- وهل كنت دائماً على علاقة طيبة مع زوجة أبيك؟
- دائماً.
- وانتقل تافرير إلى موضوع آخر فقال: هل تستطيع أن تحدثني عن السيد لورانس براون؟
- لا أظن، فأبي هو الذي استخدمه.
- ولكنه استخدمه لتعليم أولادك يا سيد ليونيدس؟
- هذا صحيح، فقد أصيب أوستاش بشلل الأطفال، ومن حسن الحظ أنها كانت إصابة خفيفة، ولكن رأي أنه من الأفضل ألا يتابع دراسته في المدارس العامة واقترح أبي أن يعهد به وبأخته جوزفين إلى مدرس خاص، وكان من المتعذر

الحصول على مثل هذا المدرس في زمن الحرب لانخراط الجميع في سلك الجندية، وأخيراً وجدنا لورانس براون الذي قدّم إلينا شهادات طبية رضي عنها أبي وخالتي التي تكفلت بتربية الأولاد، فاستخدمناه. ويجب أن أقرر إحقاقاً للحق أنه مدرس كفء حي الضمير.

- هل يقيم معكم في هذا البيت؟

- كلا، فليس في البيت متسع له.

- هل لاحظت في أي وقت (ومعذرة على هذا السؤال)

وجود علاقة خاصة بين لورانس وزوجة أبيك؟

- كلا.

- هل سمعت كلاماً عن وجود مثل هذه العلاقة؟

- أنا لم أعود استراق السمع على الأبواب أيها المفتش.

- صدقت، إذن لا تعرف شيئاً في هذا الصدد؟

- كلا.

فقال تافرر وهو ينهض: حسناً، لم يبق لي إلا أن أشكرك

يا سيد ليونيدس.

وخرج فتبعته، وما أن وصلنا إلى الدهليز حتى قال: إنه

زبون صعب المراس!

* * *

قال المفتش تافرر مستطرداً: والآن هلم بنا نتجاذب أطراف الحديث مع السيدة ماجدا.

- هل هي ممثلة جيدة؟

- إنها من أولئك اللائي يستطعن النجاح. لقد قامت ببطولة مسرحية أو مسرحيتين في حي الوست إند وأحرزت بعض الشهرة في المسرحيات الكلاسيكية، ويبدو أن لها معجبين في المسارح التي يختلف إليها المتحذلقون. والمؤسف في أمرها أنها ليست بحاجة إلى التمثيل كمصدر للرزق، ففي استطاعتها دائماً أن تختار الدور الذي تريده وأن تسهم في تمويل المسرحية التي تعتقد أن بها دوراً يصلح لها، ثم يظهر في النهاية أن الدور لا يلائمها إطلاقاً. صفوة القول إنهم يعدّونها هاوية لا محترفة. صحيح أنها موهوبة ولكن المخرجين لا يحبونها لاعتدادها بنفسها وثرثرتها.

وما أن غادرنا قاعة الاستقبال حتى لحقت بنا صوفيا وقالت للمفتش أن أمها على استعداد لاستقباله. ودخلنا الغرفة التي تقدمتنا إليها فأريت امرأة كدت أن لا أعرفها تجلس على أريكة فخمة في أحد أركان الغرفة. كانت ترتدي تنورة رمادية

أنيقة فوقها قميص بنفسجي ويتدلى فوق صدرها عقد ثمين من اللؤلؤ. ومرت لحظة قبل أن أعرف في هذه السيدة الأنيقة تلك المرأة الصاخبة التي رأيتها قبلاً في مكتب فيليب ليونيدس. قالت بصوت فهمت من نبراته أنها مصممة على الاحتفاظ بهدوئها حتى النهاية مهما كلفها ذلك: تفضلاً بالجلوس، هل تدخن أيها المفتش؟ إن هذه القضية تقلقني حتى لأشعر في بعض الأحيان أنني في حلم، بماذا أستطيع أن أفيدك أيها المفتش؟

فأجاب تافرر: اسمحي لي أولاً يا سيدتي بأن أسألك أين كنت عندما توفي السيد أرسيتيد؟

- كنت قادمة بالسيارة من لندن، فقد تناولت طعام الغداء مع صديقة لي بمطعم إيفي، ثم شهدنا عرضاً للأزياء، وغادرت لندن بعد ذلك. وعندما وصلت إلى هنا علمت أن السيد أرسيتيد قد توفي.

وارتجف صوتها في العبارة الأخيرة بالقدر اللازم تماماً.

- هل كنت تحينه؟

- غاية الحب.

وارتفع صوتها قليلاً، فدقت صوفيا بإصبعها على إطار صورة فوق الموقد، وكانت النتيجة أن ماجدا خفضت صوتها وهي تقول: نعم، كنت أحبه، كلنا كنا نحبه، فقد كان لطيفاً معنا جميعاً.

- هل كنت على وفاق مع زوجته؟

- مع بريندا؟ نحن لم نكن نراها إلا قليلاً.

- لماذا؟

- لم تكن لنا صلة بها. مسكينة بريندا! لا بد أنها مرت بأوقات عصيبة.

وهنا نقرت صوفيا بإصبعها على إطار الصورة مرة أخرى، وقال المفتش: أحقاً؟ وماذا تعنين؟

فهزت ماجدا رأسها وقالت وعلى شفيتها ابتسامة حزينة: لا أعلم.

- هل كانت سعيدة؟

- أظن ذلك.

- هل كانت تتشاجر مع زوجها؟

- الحق أنني لا أعلم يا سيدي المفتش.

- أعتقد أنها كانت على صلة وثيقة بلورانس براون،

أليس كذلك؟

فاعتدلت ماجدا في جلستها فجأة وقالت بكبرياء: يخيل إليّ أنه ليس من حقدك أن تلقي عليّ مثل هذه الأسئلة أيها المفتش. لقد كانت لبريندا صلوات وثيقة بجميع الناس، فهي سيدة مجتمع من الطراز الأول.

- والسيد لورانس براون، هل هو شخص لطيف؟

- إنه شاب هادئ دمث الأخلاق.

- هل أنت راضية عنه كمدرس؟

- كل ما أعلمه هو أن فيليب راضٍ عنه كل الرضا.

وهنا لجأ تافرير إلى أسلوب أكثر صراحة، قال: معذرة عن هذا السؤال، ولكن هل حصلت مغازلات بين لورانس براون السيدة بريندا ليونيدس؟

فانبعثت ماجدا واقفة كسيدة غضبي وصاحت: أنا لم أر شيئاً، وليس من حقك أن تستجوبني في هذا الموضوع. لقد كانت بريندا زوجة حمائي.

فكدت أن أصفق إعجاباً، أما المفتش فإنه نهض بدوره وهو يقول: هذا سؤال ربما يحسن بي أن ألقيه على الخدم.

فصمتت ماجدا ولم تجب، وشكرها تافرير وحياتها بإيماءة من رأسه وانصرف. وصاحت صوفيا على الأثر: برافو! أحسنت يا أماه، حقاً لقد كنت رائعة.

فأجابت ماجدا: نعم، هكذا يجب أن ألعب هذا الدور.

ونظرت صوفيا إليّ وقالت: أما كان يحسن بك أن ترافق المفتش؟

- ولكن يا صوفيا...

ولم أتم عبارتي. لم يكن باستطاعتي أن أسألها على مسمع من أمها عن الدور الذي ينبغي أن أقوم به في ذلك البيت. إن ماجدا ليونيدس لم تعرني حتى تلك اللحظة أي اهتمام، وسواء كنت مخبراً صحفياً أو خطيباً لابنتها أو مرشداً

مغموراً يعمل في خدمة الشرطة فإنني كنت بالنسبة إليها مجرد جمهور يشهد تمثيلها ويصفق لها أو لا يصفق.

* * *

أومات صوفيا إليّ برأسها فنزلت على إرادتها وهرولت في إثر تافرير، ولحقت به في البهو وهو يمر بالباب المؤدي إلى الدرج. قال لي إنه في طريقه لمقابلة روجر الأخ الأكبر ففكرت أن أصارحه على الفور بمشكلتي. قلت له: حدثني يا تافرير، ماذا أفعل أنا هنا؟

فنظر إليّ في دهشة وقال: ماذا تفعل هنا؟

- نعم. إذا سئلت عن صفتي هنا فبماذا أجيب؟

قال: هل هذا ما يقلقك؟ ثم استطرد بعد لحظة تفكير:

هل سئلت؟

- كلا.

- إذن لا تفكر في الأمر ولا تُدَلِّ بأي إيضاح. هذه هي الطريقة المثلى وخاصة في بيت كهذا، فكل إنسان لديه من الهموم والمتاعب ما يصرفه عن التفكير في استجواب الآخرين. إن أحداً لن يسألك شيئاً ما دمت تتظاهر بأن من حَقُّك أن تكون هنا، والآن هلم بنا.

وما أن شرعنا في ارتقاء الدرج حتى قال: لا شك أنك لاحظت أن جميع الأسئلة التي ألقيتها عليهم لا أهمية لها، فأنا

لا يعينني ماذا كان يفعل هذا أو ذاك عندما لفظ العجوز أنفاسه الأخيرة.

فسألته في دهشة: لماذا تستجوبهم؟

- لأن استجوابهم يهيئ لي فرصة لمعرفة أسباب الخلاف بينهم، ولأن ثرثرتهم قد تتضمن معلومات تفيدنا. ثم استطرد قائلاً بصوت خافت: قلبي يحدثني بأن ماجدا ليونيدس تستطيع إذا شاءت أن تدلي إلينا بحقائق على جانب عظيم من الأهمية. إن ما يجري في هذا البيت هو أن كل إنسان فيه يملك القدرة والوسيلة لارتكاب الجريمة، ولذلك أنا لا أبحث عن المجرم وإنما أبحث عن الدافع إلى الجريمة.

* * *

وتوقفنا في نهاية الدرج أمام باب مغلق، وقرع المفتش الباب ففتحه عملاق ضخم الجسم عريض الكتفين مشوش الشعر. كان دميم الوجه دمامة تثير العطف. وذكر تافرnr اسمه فقال الرجل: تفضلاً بالدخول. لقد كنت أهم بالخروج ولكن لا ضرورة لذلك الآن. تعالاً إلى قاعة الاستقبال وسأخطر كليمنسي بقدموكما. آه، أنت هنا أيتها العزيزة؟ هذا هو المفتش تافرnr، أظن أنه لا توجد سجائر هنا، صبراً لحظة، سأحضر بعض السجائر وأعود فوراً.

وغادر المكان فأحسنا بنعمة السكون بعد الجلبة الشديدة التي أحدثها. كانت زوجته تقف على مقربة من النافذة فنظرت إليها، ولم أتمالك نفسي من الإحساس بأنها شخصية تثير الفضول. كذلك أثار فضولي جو الغرفة التي

دخلناها، فقد كانت الجدران عارية من كل زخرف وخالية من اللوحات والزهور فيما عدا لوحة عليها رسوم هندسية متشابكة. أما الأثاث فكان قليلاً، بضعة مقاعد ومائدة مغطاة بالزجاج وخزانة صغيرة للكتب، ولكن كان هناك كثير من الضوء والفراغ والهواء. كان الفارق بين قاعة الاستقبال في شقة ماجدا بأثاثها الفخم ولوحاتها الأنيقة وزهورها وبين قاعة الاستقبال في شقة كليمنسي بهدونها وبساطتها المحببة كالفرق بين المرأتين. فالأولى لها ثلاثون شخصية مختلفة، أما الثانية فلها شخصية واحدة هي شخصيتها الحقيقية التي لا ترضى بأن تتقمص شخصية سواها. كانت كليمنسي تناهز الخمسين من العمر ولها شعر قصير قد خطه الشيب وعينان جميلتان تشعان ذكاء وحيوية، وكانت ترتدي ثوباً أحمر من الصوف يبرز نحول جسدها وطول قامتها.

دعتنا إلى الجلوس وسألت تافرر عما إذا كان هناك جديد فأجاب: نعم يا سيدتي، لقد ثبت أن الوفاة نجمت عن التسمم بمادة الإيزيرين.

قالت بنفس الصوت الهادئ وهي مستغرقة في التفكير: إنها جريمة قتل إذن. ألا يحتمل أن يكون الحادث قد وقع قضاء وقدرًا؟

- كلا بالتأكيد.

- هل لي أن أرجوك بالترفق بزوجي أيها المفتش؟ هذا النبأ سيثيره، وهو شديد الحساسية وكان يحب أباه حباً جماً.

- هل كانت علاقتك بأبيه طيبة يا سيدتي؟

- كانت طيبة جداً. ثم أضافت في هدوء: ولكني لم أكن أحبه.

- لماذا؟

- لم أكن أقر أهدافه ولا وسائله للوصول إلى هذه الأهداف.

- والسيدة بريندا ليونيدس؟

- بريندا؟ لم أكن أراها كثيراً.

- هل تعتقدين بأنه يمكن أن يكون هناك علاقة ما بينها وبين لورانس براون؟

- لا أعتقد ذلك، ولو كانت هناك علاقة لما علمت بها.

كانت نبرات صوتها توحى بأن الأمر لا يهمها. ودخل روجر ليونيدس في هذه اللحظة كالعاصفة وقال: لقد تأخرت قليلاً لأنني تلقيت محادثة تليفونية. ماذا عندك من الأنباء أيها المفتش؟ هل عرفتم كيف مات أبي؟

- لقد مات مسموماً بمادة الإيزيرين.

- يا إلهي! إذن فإن تلك المرأة لم تستطع الانتظار! لقد أنقذها من الوحل فكان جزاؤه منها القتل. كلما فكرت في...

- هل لديك من الأسباب ما يحملك على اتهامها؟

فجرى بأصابع يديه في شعر رأسه وأجاب وهو يذرع أرض الغرفة: أسباب؟ إذا لم تكن هي فمن سواها؟ إنني لم أثق فيها قط ولم أشعر نحوها بأي عطف، لا أحد منا يحبها.

لقد جمدنا في أماكننا أنا وفيليب يوم أنبأنا أبي بما فعل، كان جنوناً أن يتزوج في تلك السن. إن أبي كان رجلاً مدهشاً أيها المفتش وقد ظل يحتفظ وهو في السبعين بكاء ويقظة ابن الأربعين. إنني أدين له بكل ما أملك في هذه الدنيا ولم يحدث قط أنه امتنع عن مساعدتي عند الضرورة.

قال ذلك وتهالك في أحد المقاعد، فوضعت زوجته يدها على كتفه بلطف وقالت: اهدأ وتمالك نفسك يا روجر.

- كيف أهدأ حين أفكر في...

- يجب علينا جميعاً أن نحافظ بهدوئنا يا روجر. إن المفتش تافرر لا يبغى إلا مساعدتنا.

فنهض روجر من مقعده فجأة وصاح: هل تعلمين ماذا أريد فعلاً؟ أريد أن أخنق هذه المرأة بيدي. لو كانت أمامي الآن لدققت عنقها.

- روجر!

كان صوتها حازماً فنكس روجر رأسه وقال: معذرة أيتها العزيزة. ثم نظر إلينا وأردف: معذرة، فقد استبد بي الغضب.

ثم غادر الغرفة مرة أخرى فشيخته كليمنسي بابتسامة غامضة وقالت: إنه لا يؤدي ذبابة رغم صحبه وهياجه.

فأجاب تافرر في أدب بأنه واثق من ذلك، ثم ألقى عليها بضعة أسئلة فأجابته بدقة وإيجاز. قالت عن تحركات روجر يوم وفاة أبيه إنه قضى ساعات الصباح في مقر إدارة الشركة المتحدة للمواد الغذائية في لندن وعاد بعد الظهر حيث اجتمع

بأبيه فترة قصيرة كما اعتاد أن يفعل كل يوم، أما هي فإنها ذهبت كالعادة إلى مقر عملها بمعهد لامبرت ولم تعد إلا في الساعة السادسة مساءً.

- هل رأيت أرسفيد ليونيدس في ذلك اليوم؟

- كلا، رأيت له لآخر مرة في اليوم السابق حين تناولنا القهوة معه بعد العشاء.

- ألم تريه يوم وفاته؟

- كلا، ولكنني ذهبت إلى شقته في ذلك اليوم للبحث عن غليون روجر، ووجدت الغليون على مائدة في الردهة حيث نسيه روجر فلم أشأ أن أزعج العجوز لأنه اعتاد أن يغفو في نحو الساعة السادسة.

- متى علمت أن حالته قد ساءت؟

- جاءت بريندا وأنابتنا، وكان ذلك في حوالي الساعة السادسة والنصف.

كان تافرير ينظر إلى كليمنسي طوال الوقت ولا يحول عينيه عن وجهها، وأخيراً ألقى عليها بضعة أسئلة عن طبيعة عملها في معهد لامبرت فقالت إنها تقوم ببعض البحوث عن تحطيم الذرة.

وقبل أن ينصرف تافرير طلب أن يلقي نظرة على الشقة، فدهشت كليمنسي ولكنها أجابته إلى ما طلب. كان المخدع بفراشيه الصغيرين وستائره البيضاء يذكر الناظر بغرف النوم في الأديرة، وكان الحمام لا يقل عنه تقشفاً، أما المطبخ فكان

نظيفاً جداً وقد نظم بحيث يوفر ما يبذل فيه من جهد. ووصلنا إلى آخر باب في الشقة ففتحته كليمنسي وهي تقول: هنا مكتب زوجي.

فتنهدت بارتياح، إذ أسعدني بعد جولتي في تلك الشقة المتواضعة التي تعبر عن التقشف أن أجد نفسي أخيراً في غرفة تعكس شخصية صاحبها. كان المكتب مغطى بالأوراق، والغلايين القديمة مبعثرة بين الملفات، والجدران مزينة بصورة جماعية لطلاب ولاعبي كريكيت وعسكريين وبلوحات بالألوان المائية تمثل غروب الشمس والسفن الشراعية. إن الغرفة في مجموعها تترك في نفس الزائر انطباعاً بأنها لرجل يسعد الإنسان أن يتخذه صديقاً.

أفسح روجر مكاناً على مكتبه لكي يقدم لنا شراباً وقال: كنت في سبيل معالجة هذه الفوضى وتنظيم الأوراق.

لكن تافرر اعتذر وقال إنه يفضل ألا يتناول شراباً، واستطرد روجر قائلاً: أرجو المعذرة مرة أخرى عما بدر مني فإنني لم أتمالك نفسي. ونظر حوله بخوف ولكنه اطمأن حين لم يرَ كليمنسي وقال: إنها امرأة رائعة! أنتما تعرفان طبعاً من أعني، لقد ظلت طوال هذه المحنة محتفظة بثباتها ورباطة جأشها، وليس في استطاعتي أن أعبر عن مبلغ إعجابي بها. لقد مرت بأيام عصيبة قبل أن نتزوج. كان زوجها الأول شاباً ممتازاً ولكنه مريض بالسل الرئوي، وكان يقوم بأبحاث علمية هامة عن التبلور ويعمل كثيراً ويربح قليلاً ولكنه رفض أن يترك معمله، فساعده بكل ما تملك من قوة وبذلت بغير حساب وأنهكت قواها لتجنبه التعب والألم وهي تعلم عن يقين أنه

يسير إلى القبر بخطى حثيثة، ولم تشتك ولم تتذمر وظلت إلى آخر لحظة تقول له إنها سعيدة، ولما مات انهارت تماماً. وحين تزوجنا رجوتها أن تكف عن العمل وتستريح، ولكننا كنا في حالة حرب وكان شعورها بواجبها الوطني قوياً، فلم تستجب إلى رجائي، واستمرت في عملها حتى الآن. إنها زوجة عظيمة، ولطالما قلت لنفسي إن يوم لقائي بها كان بغير شك أسعد يوم في حياتي. إنني على استعداد لأن أفعل أي شيء من أجلها.

فقال تافررر عبارة لبقة تناسب الموقف، ثم عرج بمهارة على موضوع الزيارة وسأله: كيف علمت أن أبك في حالة سيئة؟

- جاءت بريندا وأنبأتني فأسرعت إلى أبي، وكنت قد تركته منذ نحو نصف ساعة في أحسن حال، فوجدته يهذي ووجهه أزرق، فانطلقت إلى أخي الذي اتصل بالطبيب في الحال. ولم يكن في استطاعتي عمل شيء، وغني عن الذكر إنه لم يتطرق إلى أذهاننا في ذلك الوقت أن في الأمر ما يبعث على الارتياب.

بعد لحظة كنت وتافرررر نغادر الشقة فقال لي: ليس بين الأخوين أي تشابه. ثم أردف بعد قليل: يتبادر إلى الذهن لأول وهلة أن هذا الرجل لا يمكن أن يسمم أحداً، أما زوجته فإنها من الطراز الذي لا يصدده عن أهدافه أي اعتبار.

فقلت: ولكنني لا أظن أنها تقتل إنساناً لمجرد أنها تختلف معه في الرأي. صحيح أنها اعترفت بأنها تبغض العجوز، ولكن كم عدد الجرائم التي ترتكب بسبب البغض وحده؟

فأجاب تافرر: عددها قليل. أنا شخصياً لم أصادف جريمة ارتكبت لهذا السبب، ولذلك ما زلت أصر على أن المتهمة الرئيسية هي بريندا، والله وحده يعلم ما إذا كنا نستطيع العثور على دليل يدينها.

* * *

فتحت إحدى الوصيفات الباب المؤدي إلى الجناح الآخر ورمقت تافرnr بنظرة بين الخوف والاحتقار وسألته: هل تريد مقابلة سيدتي؟

أجاب بالإيجاب فقادتنا إلى قاعة استقبال فسيحة واختفت. كان أثاث القاعة يمتاز بألوانه المرححة، وقد وضعت على الجدار فوق المدفأة صورة لفتت نظري. ليس فقط لأنها بريشة أحد كبار الفنانين وإنما كذلك لأنها تمثل شخصاً غير عادي، تمثل عجوزاً ثاقب النظرات يشع وجهه نشاطاً وحيوية. قال تافرnr: هذه اللوحة رسمها الفنان الكبير أوجستوس جون. لقد كانت للعجوز شخصيته المميزة، أليس كذلك؟

- نعم.

كانت إجابتي المختصرة لا تعبر تعبيراً كافياً عما يدور بخلدي. لقد فهمت الآن فقط وأنا أتأمل الصورة ماذا عنت إديث دي هافيلاند حين قالت إن البيت بدون العجوز يبدو خاوياً.

قال تافرnr: وها هي صورة زوجته الأولى بريشة الفنان سارجنت. فاقتربت لأتأمل الصورة. كانت موضوعة بين نافذتين وتعبّر عن الخشونة التي تتميز بها لوحات سارجنت، ولكنها

كانت صورة جيدة لسيدة من أغنياء الريف. جميلة ولكن ليس ثمة ما يميزها، ولا يمكن أن يتصورها الإنسان زوجة لهذا الطاغية القصير القامة الذي تطل صورته من فوق المدفأة. ودخل الضابط لام في تلك اللحظة فقال: لقد عرفت من استجواب الخدم أنهم لا يعرفون شيئاً. ثم جلس في أحد الأركان وأخرج ورقة وقلماً واستعد لتسجيل ما سوف يدور من حديث بين المفتش والزوجة الثانية لأرستيد ليونيدس.

فُتح الباب ودخلت بريندا. ورأيت أمامي سيدة صغيرة الجسم رقيقة قد صبغت شفثتها وشفثتها بالأسود ببساطة وبلا تعقيد، وعلى الرغم من ذلك خيّل إليّ أنها كانت تبكي قبل قدومها. كانت ترتدي ثوب حداد يلائمها تماماً وتزين صدرها بعقد من اللؤلؤ ويدها اليسرى بخاتم من الزمرد ويدها اليمنى بخاتم آخر من الياقوت. لاحظت كل ذلك بسرعة، ولاحظت أيضاً أنها ترتعد خوفاً. حياها تافرر وقال إنه أسف لأنه يزعجها مرة أخرى، فأجابته بصوت باهت: أظن أن لا سبيل لك غير ذلك.

قال: لا أحسبني يا سيدتي بحاجة إلى أن أقول لك إن من حقد الاستعانة بمحاميك إذا شئت.

- أنا لا أحب السيد جيتسكيل ولا أريد أن أراه.
- بوسعك الاستعانة بأي محام يقع عليك اختيارك.
- وهل هذا ضروري؟ أنا لا أحب رجال القانون، إنهم يربكونني.

فقال تافرnr وعلى شفنيه ابتسامة لا معنى لها: على
رسلك، هل نبدأ؟

فجلست على أحد المقاعد وسألت: هل وجدتم شيئاً؟
وراحت أصابعها تعبث بقماش ثوبها بحركة عصبية،
فقال تافرnr: بوسعنا أن نؤكد بصفة قاطعة أن زوجك قد مات
مسموماً بمادة الإيزيرين.

- تعني أنه قتل بالمادة التي يضع منها قطرات في عينيه؟
- يبدو أنك قد حقنته آخر مرة بالإيزيرين بدلاً من
الأنسولين.

- ولكنني لم أكن أعلم ذلك أيها المفتش، أقسم لك إنني
لم أكن أعلم.

- إذن لا بد من أن يكون أحدهم قد تعمد استبدال
الأنسولين بالإيزيرين.

- هل تعتقد أن ذلك قد حدث عمداً أم خطأ؟ أم على
سبيل الدعاية؟

- نحن لا نعتقد بأنها كانت دعابة يا سيدتي.

- إذن لا بد أنه أحد الخدم، إنني لا أرى تفسيراً آخر.

- هل أنت واثقة يا سيدتي؟ فكري جيداً. ألم يوجد من
يحقد على السيد ليونيدس؟ هل حدث خلاف بينه وبين أحد؟
- لا أظن.

- سبق وقلت إنكِ ذهبت للسينما بعد ظهر ذلك اليوم.
- نعم، وقد عدت حوالي الساعة السادسة والنصف،
وهو موعد الحقنة. ولكنني ما كدت أحقنه كالعادة حتى اختفى
لونه وأصيب بانهيار، فذعرت وأسرعت إلى روجر. لقد
قصصت عليك كل ذلك فهل يجب أن أكرره.

ارتفع صوتها غضباً وضيقتاً وهي تنطق بالعبرة الأخيرة.
فقال تافرnr: أنا آسف يا سيدتي، هل أستطيع مقابلة السيد
براون؟

- تعني لورانس؟ لماذا؟ إنه لا يعرف شيئاً على الإطلاق.
- أريد مقابله على كل حال.

نظرت إليه بارتياح وأجابت: إنه في قاعة الدرس يلقي
على أوستاش درساً في اللغة اللاتينية. هل أدعوه إلى هنا؟
- كلا، أفضل أن أذهب إليه.

وغادر تافرnr الغرفة وتبعته مع لام. سرنا في دهليز انتهى
بنا إلى غرفة فسيحة تطل على الحديقة، وهناك رأينا رجلاً يناهز
الثلاثين يجلس جنباً إلى جنب مع مراهق في نحو السادسة
عشرة من عمره. رفع الاثنان رأسيهما حينما دخلنا، واتجهت
عينا أوستاش إليّ بينما استقرت عينا لورانس براون على تافرnr،
ولم أر في عيني إنسان من الجزع ما رأيت في عيني هذا الشاب
في تلك اللحظة. كان يبدو وكأنه يوشك أن يموت خوفاً.
ونفض واقفاً وقال: طاب يومك أيها المفتش.

- طاب يومك، هل أستطيع أن أقول لك كلمتين؟

- بلا شك يا سيدي.

فنهض أوستاش وقال بصوت رقيق: هل أغادر الغرفة أيها المفتش؟

قال لورانس: سنستأنف الدراسة بعد قليل يا أوستاش.

فانصرف الفتى وهو يمشط ببطء ويعرج في مشيته، وقال تافرنز: لقد أثبتت التحاليل حقيقة هامة يا سيد براون، وهي أن السيد ليونيدس قد مات بمادة الإيزيرين.

- إذن فقد مات مسموماً حقاً؟ كنت أرجو أن...

- نعم، لقد استبدل أحدهم بالإيزيرين مادة الأنسولين التي كان يحقن بها.

- لا أستطيع أن أتصور ذلك! هذا أمر لا يمكن تصوره.

- السؤال الذي أريد أن ألقيه عليك هو: من صاحب المصلحة في قتل السيد ليونيدس؟

- لا أحد، لا أحد إطلاقاً.

- بهذه المناسبة، ألا تريد أن يشترك محاميك في هذا الحديث؟

- ليس لي محام ولا أريد أن يكون لي، إنني لا أخفي شيئاً.

- هل تعلم أننا سنسجل أقوالك؟

- أنا بريء، أقسم لك أنني بريء.

- أنا لم أقل شيئاً يوحي بعكس ذلك. وصمت تافررن قليلاً ثم قال: كانت السيدة ليونيدس أصغر كثيراً من زوجها، أليس كذلك؟

- أظن ذلك، أعني، نعم.

- لا بد أنها كانت تشعر بالوحدة في بعض الأحيان.

مر لورانس بلسانه على شفثيه الجافتين ولم يجب، واستطرد تافررن قائلاً: لا شك أنه كان من بواعث ارتياحها أن تجد على مقربة منها شاباً في مثل سنها؟

- أبداً، أعني لا أعلم.

- أما أنا فيخيل إليّ أنه من الطبيعي جداً أن تتوثق أو اصر الصداقة بينكما.

قال لورانس محتجاً بقوة: أنا أعرف جيداً ما يدور بخلدك، ولكنك مخطفٌ. إن السيدة ليونيدس تعطف عليّ وأنا لا أكن لها إلا الاحترام، ولم أشعر نحوها قط بأية عاطفة أخرى. هذا الذي تلمح إليه فظيع للغاية، ولست أتصور أنني أستطيع أن أقتل أحداً بالسم أو بسواه. إن عقيدتي الدينية تمنعني من أن أقتل، وهذا هو السبب في أنني لم أنخرط في سلك الجندية، وبدلاً من حمل السلاح عملت وقّاداً بالمستشفيات كنت أشعل المدافئ والسخانات، وهو عمل مضمّن لم أقوَ على مواصلته فسمحت لي السلطات بالاشتغال بالتدريس، وأنا هنا أبذل قصارى جهدي مع أوستاش وجوزفين. الأخيرة تلميذة ذكية جداً ولكنها متعبة، والجميع في هذا البيت يعاملونني بكل

رفق، وها أنت تأتي الآن وتتهمني بارتكاب جريمة قتل!

فانبسطت أسارير تافرnr قليلاً وقال: أنا لا أتهمك.

- لكنك تظن ذلك، الجميع هنا يظنون ذلك. إنني أقرأ في عينيك ولكني لست في حالة تساعدني على الكلام، إنني أشعر بوعكة.

وأسرع إلى خارج الغرفة فتحول تافرnr إليّ ببطء وقال: ما هي انطباعاتك؟

- إنه في أشد حالات الخوف.

- أعلم ذلك، ولكن هل هو القاتل؟

فقال لام: إذا أردت رأيي فإنه ليس قاتلاً ولا يمكن أن تؤاّيته القدرة على القتل.

- هذا رأيي أيضاً، فهو لا يستطيع أن يقتل، بل ولا يستطيع أن يصوب مسدساً. ولكن الجريمة التي نحن بصددّها لا تكلف القاتل جهداً، بحسبه أن يستبدل قنينة بأخرى لكي يساعد عجوزاً متهدماً على الخروج من هذه الدنيا بأقل قدر من الألم.

قال لام: كنوع من القتل بدافع الشفقة.

- وبعد فترة انتظار معقولة يقترن بالأرملة الشابة التي تملك نحو مئة ألف جنيه وترث مبلغاً مماثلاً عدا ما لديها من مجوهرات. وصمّت تافرnr قليلاً ثم قال: كل هذا مجرد ظن. لقد تعمّدت أن ألقى الذعر في قلبه، ويبدو أنني قد نجحت.

ولكن ذلك لا يثبت شيئاً، فالإنسان يمكن أن يخاف وهو بريء، والواقع أنني لا أرتاب فيه بقدر ما أرتاب في المرأة، ولكنني ما زلت أتساءل: لماذا لم تتخلص من القنينة؟ أو على الأقل لماذا لم تغسلها لإزالة كل أثر للإيزيرين بها؟

ثم التفت إلى لام وسأله: ألم يلاحظ الخدم وجود صلة بين سيدتهم ولورانس؟

- قالت لي الوصيصة إنها واثقة من وجود عاطفة متبادلة بينهما.

- ما الذي جعلها تعتقد ذلك؟

- نظراته إلى السيدة وهي تقدم له أقداح القهوة.

- وهل هذا دليل يقدم للمحكمة؟ ألا يوجد شيء آخر؟

- لو كانت بينهما صلة لما غاب عن الخدم ملاحظتها. إنني أكاد أفتنع بأن هذه الصلة لا وجود لها.

ثم التفت إليّ وقال: اذهب إليها الآن واستدرجها إلى الحديث فإنني أود أن أعرف انطباعاتك عنها.

فخرجت وأنا شعر بقليل من الحماسة وكثير من الفضول.

* * *

وجدت بريندا ليونيدس جالسة حيث كانت حين تركتها.
وسألتني حالما وقع بصرها عليّ: أين المفتش؟ ألن يعود؟
- ليس الآن.

- من أنت؟

هذا هو السؤال الذي كنت أتوقعه منذ الصباح، وقد كان
جوابي أقرب ما يكون إلى الحقيقة: إنني أعمل مع الشرطة
ولكنني صديق للأسرة.

- الأسرة؟ أولئك الوحوش! إنني أمقتهم جميعاً.

ونظرت إليّ وشفتها ترتجفان ثم استطردت قائلة: لماذا
كان ينبغي ألا أتزوج أباهم؟ ولماذا ضايقتهم هذا الزواج؟ إنهم
جميعاً أثرياء إلى أبعد حدود الثراء من المال الذي أخذوه من
أبيهم والذي ما كان يمكن أن يربحوه بكدهم وعرق جبينهم!
ثم ألم يكن من حقه أن يتزوج رغم تقدمه في السن؟ على أنه
لم يكن عجوزاً بحال. إن العجز أنواع وقد كنت أحبه.

ونظرت إليّ في تحدٍ ثم استطردت قائلة: نعم، كنت أحبه. ولعلك لا تصدق ذلك ولكنها الحقيقة. كان هناك رجال كثيرون أستطيع أن أختار من بينهم زوجاً لي، ولكنني كنت أريد بيتاً وشخصاً يدللني ويقول لي كلاماً لطيفاً، وقد قال لي أرسيتيد هذا الكلام وعرف كيف يسليني ويضحكني. نعم، إن موته لم يسرنني، إنني حزينة جداً.

واعتدلت في جلستها وارتسمت على ركن فمها ابتسامة غريبة وقالت: لقد كنت سعيدة هنا. كنت أشعر بالطمأنينة والأمان وأذهب إلى أشهر صانعي الثياب، وكان أرسيتيد يقدم لي أجمل الهدايا وأثمنها... ونظرت إلى الخواتم التي تزين يديها وقالت: أي ذنب جنيت؟ كنت لطيفة معه وقد أسعدته، هل تدري كيف عرفته؟

ولم تنتظر إجابتي بل مضت تقول: كنت أعمل في أحد المطاعم، فجاء وطلب بيضاً مسلوقاً، وعندما أحضرت له ما طلب كانت الدموع في عيني، فقال لي: "اجلسي وحدثيني ما خطبك". فأجبت: مستحيل، لو فعلت ذلك لطرّدوني! فقال: "سوف يدهشني أن يطرّدوك لأنني صاحب هذا المطعم!" فنظرت إليه ووجدته قزماً عجوزاً لا يساوي شيئاً، ولكنني اكتشفت فيما بعد أنه صاحب سلطة ليست لسواه، وباختصار رويت له قصتي. من المحتمل أنك تعرفها، إذ لا شك أنهم قد حدثوك عني وقالوا لك إنني مخلوقة تافهة. ولكنهم كاذبون، فإنني على جانب كبير من الثقافة، وقد كان أبي يملك متجرّاً كبيراً ولم يحدث قط أن تسكعت مع الفتيان، ولكن تيري كان يختلف عن غيره من الشباب. كان من أصل إيرلندي وقد سافر

مع الجيش إلى مكان بعيد ولم يكتب إليّ وانقطعت أنبأؤه،
وتحصيل حاصل أن أقول إنني كنت قد تورطت معه وأصبحت
في مركز أية فتاة تخلى عنها عشيقها. وسمع أرسيد قصتي
وكان رائعاً. قال لي إن كل شيء يمكن إصلاحه وإنه يشعر
بوحدة شديدة، وقال إننا سنتزوج دون انتظار. ولم أصدق
أذني وخيّل إليّ أنني أحلم، وعلمت على الأثر أنه السيد
ليونيدس المشهور الذي يملك كثيراً من المطاعم والأندية
الليلية. وبعد فترة وجيزة تزوجنا في إحدى الكنائس الصغيرة
ورحلنا إلى أوروبا لقضاء شهر العسل.

- والطفل؟

- لم يكن هناك طفل، كنت مخطئة. وابتسمت واستطردت
قائلة: أقسمت أن أكون له خير زوجة وبررت بقسمي. قدمت
له الطعام الذي يريده وارتديت الثياب التي تعجبه وفعلت كل
ما يمكنني لإسعاده، وكان سعيداً فعلاً، ولكننا لم نستطع قط
التخلص من أفراد أسرته. أولئك الإمعات التوافه الذين يعيشون
على حسابه. إليك مثلاً تلك العجوز الأنسة دي هافيلاند، أما
كان يجب عليها أن ترحل؟ قلت ذلك لأرسيد فأجاب: إنها
تقيم هنا منذ وقت طويل وتعتبر هذا البيت بيتها. الحقيقة إنه
كان يريدهم جميعاً حوله وتحت رحمته، وقد عاملوني بقسوة
ولكنه كان يتظاهر بأنه لا يلاحظ شيئاً. كان روجر يكرهني
بدافع الغيرة والحسد وكان فيليب يشمخ عليّ بأنفه غروراً،
وهم جميعاً يريدون الآن أن يلصقوا بي تهمة قتل زوجي. فهل
تصدقني إذا قلت لك إنها تهمة كاذبة؟ قل إنك تصدقني...
أتضرع إليك.

كان في صوتها ونظرتها إليّ شيءٌ ما جعلني أشعر نحوها بالشفقة والعطف، حتى كدت أن أدين السلوك غير الإنساني لتلك الأسرة التي تحاول أن تلصق جريمة القتل بهذه المرأة المسكينة التي لا حول لها ولا قوة.

قالت: في اعتقادهم أنني إذا لم أكن القاتلة فالقاتل هو لورانس.

- حدثيني عنه قليلاً.

- كنت دائماً أرثي له، فهو معتل الصحة ولم يشترك في الحرب، ليس لأنه جبان وإنما لأنه شديد الحساسية، وقد بذلت قصارى جهدي لكي أجعله يشعر بالسعادة هنا. إنه يشرف على تثقيف تلميذين فطيعين، أوستاش الذي لا يدع فرصة تمر دون أن يسخر منه ويحاول إذلاله، وجوزفين... هل رأيتهما؟

- كلا.

- إنها تذكرني بالحية، وهي غريبة الأطوار حتى لأشعر أحياناً بالخوف منها.

لكن جوزفين لم تكن تهمني فعدت إلى الحديث عن لورانس وسألتها: من هو؟ ومن أين جاء؟

- إنه لا شيء، مثلي. فماذا نستطيع ضدهم خاصة والمفتش في صفهم؟

- لا ينبغي أن تنظري إلى الأمور على هذا النحو.

- لماذا لا يكون القاتل واحداً منهم؟ أو شخصاً من الخارج؟ أو أحد الخدم؟

- يجب أن نفكر في الدافع إلى الجريمة.

- الدافع؟ وما هو الدافع بالنسبة إليّ أو إلى لورانس؟

فقلت بشيء من الحرج: يمكن أن يقال إن بينكما صلة عاطفية وإنك تأملين الاقتران به يوماً ما.

فقلت بحدة: كيف يجرؤون على مثل هذا التفكير؟ لم يحدث قط أن دار بيني وبينه حديث يدعوهم إلى هذا الظن. كنت لطيفة معه لأنني كنت أتألم له. نحن صديقان ولا شيء غير ذلك، هل تصدقني؟

صدقته وصدقت أنهما كانا مجرد صديقين كما قالت، ولكنني شعرت في قرارة نفسي بأنها مولعة به، ربما دون أن تدري.

وانطلقت لمقابلة صوفيا وهذه الفكرة في ذهني، وكنت في طريقي إلى قاعة الاستقبال حين رأيتهما تطل من أحد الأبواب. قالت لي: إنني أساعد ناني في إعداد الطعام.

فهمت بمرافقتها إلى المطبخ، ولكنها أمسكت بيدي وقادتني إلى قاعة الاستقبال ولم يكن بها أحد. سألتني: هل قابلت بريندا؟ ما رأيك فيها؟

- بصراحة أنا أرثي لها.

فنظرت إليّ باحتقار وقالت: أرى أنها قد طوتك تحت جناحها!

- الواقع أنني فهمت وجهة نظرها.

- ماذا تعني؟

- أجيبيني بصراحة يا صوفيا، هل حدث يوم منذ جاءت بريندا إلى هذا البيت أن احتضنتها الأسرة أو عاملتها برفق على الأقل؟

- كلا، لم يحدث، ولكن لماذا كان يجب أن نترفق بها؟ يبدو من كلامك يا تشارلز أن بريندا قد أقنعتك بتمثيلها.

- الحق أنني لا أعرف ماذا دهاك يا صوفيا.

- دهاني أنني صريحة وأقول كل ما يدور بخلدي. قلت إنك فهمت وجهة نظر بريندا. حسناً، دعني أوضح لك وجهة نظري. أنا لا أحب الفتيات اللاتي يخترعن القصص لإثارة شفقة العجائز بهدف الاقتران بهم. إن لي كل الحق في أن أمقت المغامرات التي من هذا الطراز، ولست أرى سبباً يدعوني إلى التظاهر بحبهن.

- هل تعتقدين أنها كذبت على جدك؟

- بشأن الطفل؟ ربما.

- ألا تغفرين لها أنها استولت على جدك؟

فانفجرت ضاحكة وقالت: أؤكد لك إنها لم تستول عليه. لا أحد استطاع أن يستولي عليه، لقد أراد بريندا وظفر بها. كان

يعرف جيداً ما هو فاعل وسارت الأمور وفقاً لخبطته، وكان الزواج من وجهة نظره عملية ناجحة مثل جميع عملياته.

- وهل كان من عملياته الناجحة اختيار لورانس براون مدرساً للأولاد؟

لاحظت صوفيا ما في سؤالتي من سخرية فقطبت ما بين حاجبيها وقالت: ولمَ لا؟ لعله أراد أن تكون بريندا سعيدة ولا تشعر بالملل، ولعله قال لنفسه إن الثياب والمجوهرات لا تكفي لإسعادها ويجب أن يكون في حياتها شيء من الرومانسية التي لا خطر منها، ومن المحتمل أن يكون قد رأى أن رجلاً خجولاً من طراز لورانس براون هو الشخص المطلوب كطرف في علاقة مع بريندا تجمع بين الصداقة والحب وتمنع بريندا من التورط في مغامرات فعلية مع آخرين في الخارج! لقد كان جدي بارعاً في مثل هذه التدابير، وطبيعي أنه لم يكن يتوقع أن ينتهي هذا التدبير بجريمة. وصمتت قليلاً ثم قالت: إن معرفتي ببراعة تجعلني أكاد أرتاب في أن بريندا هي التي قتلته، إذ لو أنها دبرت لارتكاب الجريمة بنفسها أو بالاشتراك مع لورانس لعلم جدي بذلك.

- وهذا يعيدنا إلى نقطة البداية.

- لنضع الحديث في هذا الموضوع يا تشارلز، سأذهب الآن لإعداد الطعام.

- ألا تريد أن أساعدك؟

- بل ابق هنا، إن ناني تجن إذا رأت رجلاً في المطبخ.

قالت ذلك وغادرت الغرفة، فتهالكت على أحد المقاعد وانصرفت إلى التفكير.

* * *

لقد عرفت وجهة نظر بريندا، وعرفت كذلك وجهة نظر صوفيا التي هي أيضاً وجهة نظر الأسرة كلها، وخلصت مما سمعت إلى أن آل ليونيدس لا يغفرون للأجنبي الذي يندس بوسائل يعتقدون أنها ملتوية. لكن للموضوع ناحية إنسانية يصرون جميعاً على تجاهلها، ذلك أنهم كانوا طوال حياتهم في رغد من العيش، فهم لا يفهمون معنى الطموح عند الذين لم يملكوا في حياتهم شيئاً. وقد أرادت بريندا أن تظفر بكل ما حُرمت منه: المال والترف والأمان والبيت، وكان لها ما أرادت في مقابل ما بذلته لإسعاد زوجها العجوز. لقد شعرت بالعطف عليها حين سمعت قصتها، فهل يجب الآن أن أستردها هذا العطف وأنكره عليها؟ إنها مشكلة معقدة ذات وجهين فأيهما أصح؟

وكنت قد قضيت ليلة مسهدة واستيقظت مبكراً في الصباح لأرافق تافرير، وكان جو قاعة الاستقبال دافئاً معطراً والمقعد الذي أجلس فيه وثيراً، فأغضت عيني وما لبثت أن استغرقت في نوم عميق.

* * *

استيقظت من نومي في هدوء حتى كدت لا أصدق أنني قد نمت، ورأيت فوق رأسي بقعة بيضاء خيّل إليّ أنها شبح في الفضاء، وانقضت بضع ثوان قبل أن أستجمع حواسي وأدرك أن هذه البقعة البيضاء لم تكن إلا وجهاً مستديراً لفتاة صغيرة نحيلة لها شعر كستنائي معقود فوق رأسها وعينان سوداوان جاحظتان. قالت الفتاة وهي تنظر إليّ بحدة: طاب يومك.

فغمغمت: طاب يومك.

قالت: أنا أدعى جوزفين.

وكنت توقعت حالما رأيتها أنها جوزفين شقيقة صوفيا. كانت في نحو الحادية عشرة أو الثانية عشرة من عمرها، دميمة جداً وتشبه جدها شهباً عظيماً، وخيّل إليّ أنها ربما قد ورثت ذكاه أيضاً.

قالت: أنت صديق صوفيا، أليس كذلك؟

فصمتّ ولم أجب. قالت: ولكنك جئت مع المفتش

تافرر، لماذا؟

- إنه أحد أصدقائي .

- أحقاً؟ إنه لا يعجبني ولذلك لن أقول له شيئاً .

- وماذا كان بودك أن تقولي له؟

- إنني أعرف أشياء كثيرة .

وجلست على طرف أحد المقاعد واستمرت تتفرس في وجهي بإلحاح حتى بدأت أشعر بالضيق. ثم قالت: لقد قُتل جدي، هل تعلم ذلك؟

- نعم .

- مات مسموماً بمادة الإيزيرين .

ونظقت الكلمة الأخيرة ببطء ووضوح ثم استطردت قائلة: إنها مسألة مثيرة، فما قولك؟

- أعتقد ذلك .

- لقد إنها أثارني أنا وأوستاش، فنحن نحب القصص البوليسية. طالما تمنيت أن أصبح شرطياً سرياً، وها قد تحققت أمنيته. أنا الآن أبحث عن أدلة.

كان كل شيء فيها يشير النفور. وقالت: ذلك الرجل الذي جاء مع المفتش تافرنر، هل هو أيضاً من رجال الشرطة؟ يقولون في قصص التحريات إن الشرطي إذا ارتدى الملابس المدنية فيمكن معرفته من حذائه الضخم، ولكن حذاء هذا الرجل من النوع اللامع الجميل.

- كل شيء يمكن أن يتغير يا جوزفين، حتى أساليب رجال الشرطة.

فقلت بلهجة جدية: نعم، كل شيء يمكن أن يتغير، وسوف يحدث تغيير هنا أيضاً، إذ يحتمل أن نذهب للإقامة في لندن. كانت أمي تتمنى ذلك منذ وقت طويل، أما أبي فتستوي عنده الإقامة في أي مكان طالما أن كتبه على مقربة منه، وفيما مضى لم يكن في استطاعتنا الانتقال إلى لندن لأن أبي خسر مبالغ طائلة في جيزابيل.

- جيزابيل؟

- نعم، هل شاهدتها؟

- هل هي مسرحية؟ كلا، لم أشهدها لأنني لم أكن في إنجلترا.

- إنها لم تمثل طويلاً، ويمكن أن يقال إنها سقطت، وفي اعتقادي أن أمي لا تصلح لدور جيزابيل، فما رأيك أنت؟

وكنت قد رأيت ماجدا من قبل فلم أجد فيها ما يذكّرني بجيزابيل، ولكنني رأيت من الحكمة أن أجيب جوزفين بأنني لا أستطيع أن أؤدي رأياً في هذا الموضوع. فقلت: كان من رأي جدي دائماً أن المسرحية لن تحقق ربحاً، وقال إنه لا يمكن أن يجازف بتمويل دراما دينية لأن الجمهور لا يقبل على هذا النوع من المسرحيات، ولكن أمي كانت مفتونة بدورها. على أن المسرحية لم تعجبني لأنها قدمت جيزابيل في صورة امرأة شريرة خلافاً لما ورد في الكتاب المقدس، ولكن النهاية لم

تكن رديئة ، فقد ألقوا بجيزابيل من النافذة. ومما يدعو للأسف أنه لم تكن هناك كلاب تلتهمها، وقد قالت أمي إنه لم يكن في استطاعتهم تقديم الكلاب على خشبة المسرح، ولكن أعتقد أنه كان بوسعهم استخدام كلاب مدربة.

ثم راحت تردد ما جاء في الكتاب المقدس في هذا الصدد: "والتهمت الكلاب جسدها كله فيما عدا راحة يدها"... لماذا لم تلتهم الكلاب راحة يدها؟

- الحق إنني لا أعلم.

- لا بد أنها كانت كلاباً ذات ذوق خاص، إن كلابنا تأكل كل شيء.

وراحت تفكر في هذا السر، فقلت لكي أوصل الحديث معها: يؤسفني أن المسرحية قد سقطت.

- كانت أمي تقرأ ما كتبه النقاد عن المسرحية فتبكي أو تثور غضباً، وقد بلغ غضبها ذات صباح أنها قذفت بصحفة الطعام في وجه وصيفتها جلاديس، وقد ضحكت يومئذٍ حتى دمعت عيناها.

- يخيل إليّ أنك تحيين المواقف الدرامية.

- هل تعرف أنهم قاموا بتشريح جثة جدي لمعرفة سبب وفاته؟

- نعم. هل حزنتم لوفاته يا جوزفين؟

- كلا، لم أكن أحبه كثيراً، فهو الذي منعني من تعلم رقصات البالية.

- هل كنت تريدني تعلم الرقص؟

- نعم، وقد وافقت أمي ووافق أبي أيضاً، ولكن جدي قال إنني لن أصلح لشيء.

وهزت كتفيها وقالت لتغير مجرى الحديث: هل يعجبك بيتنا؟

- لست واثقاً من ذلك.

- من المحتمل أن يباع، إلا إذا أصرت بريندا على البقاء فيه. ومن المحتمل جداً كذلك أن يعدل العم روجر والعمة كليمنسي الآن عن الرحلة التي كانا يعتزمان القيام بها.

- هل كانا يعتزمان القيم برحلة؟

- نعم، كانا يعتزمان السفر بالطائرة يوم الثلاثاء إلى مكان ما في أوروبا، بل لقد ابتاعت العمة كليمنسي فعلاً حقيبة صغيرة جميلة من تلك الحقائب الخفيفة التي تستخدم للسفر بالطائرات.

- لم اسمع أي حديث عن هذه الرحلة.

- لا أحد يعلم بأمرها. كان مقرراً أن تظل سراً لا يذاع إلا بعد رحيلهما، وكان في نيتهما أن يكتبتا بشأنها رسالة لجدي.

- ولكن لماذا سيعدلان عن الرحلة، هل تعرفين السبب؟

نظرت إليّ بخبث وقالت: أظن أنني أعرف. أنا لست على يقين ولكن يخيّل إليّ أن العم روجر قد ارتكب بعض الاختلاسات.

- لماذا تقولين ذلك؟

فاقتربت مني وقالت في همس: في يوم وفاة جدي ذهب إليه العم روجر في غرفته ومكث معه وقتاً طويلاً تحدثاً خلاله كثيراً، واتهم العم روجر نفسه بالضعف والغباء وقال إنه لا يستحق الثقة التي وضعها فيه جدي.

فنظرت إليها في شيء من القلق وقلت لها: ألم يقل لك أحد يا جوزفين إن الإنصات وراء الأبواب لا يتفق مع الخلق الكريم؟

فابتسمت وأجابت: طبعاً، ولكن كيف يعرف الإنسان حقائق الأمور إذا لم يسترق السمع من وراء الأبواب؟ سل المفتش تافرني يجبك بأنه لا يجد غضاضة في ذلك.

لم تدع لي فرصة للكلام واستطردت قائلة: وإذا لم يكن تافرني يسترق السمع بنفسه فإن زميله ذا الحذاء اللامع يفعل ذلك. كلاهما يبحثان في كل مكان، يفتحان الأدراج ويقرآن الرسائل بحيث يعرفان أسرار الجميع. لكنهما ليسا من الذكاء بحيث يعرفان أين يجب أن يبحثا. أنا وأوستاش نعرف أشياء كثيرة، وأنا أعرف أكثر ولكني لا أطلععه على معلوماتي لأنه يزعم أن النساء لا يصلحن لأعمال التحري، وأنا أعتقد غير ذلك، ولسوف أسجل معلوماتي في دفتر أقدمه لرجال الشرطة بعد أن يعترفوا بعجزهم وأقول لهم: إنني أعرف المجرم.

- هل تقرئين الكثير من القصص البوليسية يا جوزفين؟

- أقرأ المئات.

- وتظنين أنك تعرفين من قتل جدك؟

- لدي فكرة لم تنضج بعد، إذ ما زلت أفتقر إلى الأدلة.

وصممت قليلاً ثم قالت: يعتقد المفتش تافرر أن بريندا قد سممت جدي بالاتفاق مع لورانس، أليس كذلك؟ إنه احتمال وجيه خاصة إذا وضعنا بالاعتبار أن بريندا ولورنس يحبان بعضهما البعض.

- لا يجب أن تقولي مثل هذا الكلام يا جوزفين.

- ولمَ لا؟ أليست هذه الحقيقة؟

- لا أحد يعلم.

- ولكنهما يتبادلان الرسائل الغرامية.

- كيف علمت؟

- أنا أعلم لأنني قرأتها ووجدتها تفيض بالعبارات العاطفية، وذلك لا يستغرب من شخص مثل لورانس. إنه جبان إلى حد أنه خاف من الاشتراك في الحرب، وعندما كانت الصواريخ تمر من فوق البيت كان يرتجف فرعاً ويصفّر لونه فأغرق أنا وأوستاش في الضحك.

* * *

كان من الممكن أن يستمر حديثنا أكثر من ذلك لولا أن سمعنا في هذه اللحظة صوت وقوف سيارة بباب البيت، فأسرعت جوزفين إلى النافذة وأطلت منها فسألتها: من القادم؟
- السيد جيتسكيل محامي جدي، وأظن أنه قد جاء من أجل الوصية.

بدا عليها الانفعال وأسرعت إلى قاعة الاستقبال، ربما لتواصل تحرياتها. وجاءت ماجدا على الأثر، ولشد ما كانت دهشتي حين رأيتهما تقبل عليّ وتناول يدي وتهتف قائلة: حمداً لله على أنك ما زلت هنا، فما أحوجنا إلى رجل في هذا البيت! ثم تركت يدي وجلست على مقعد ونظرت إلى وجهها في إحدى المرايا ثم راحت تنقر بأناملها على حافة المائدة، وأطلت صوفيا برأسها من الباب فقالت: لقد جاء السيد جيتسكيل.
فقالت ماجدا: أعلم ذلك.

وعادت صوفيا بعد قليل برفقة رجل قصير القامة فنهضت ماجدا لاستقباله. قال جيتسكيل: طاب يومك يا سيدتي. لقد جئت لمقابلة زوجك. يبدو أن هناك سوء تفاهم بشأن الوصية، فقد فهمت من رسالة بعثت بها إليّ أنه يعتقد أن الوصية عندي، ولكنني أظن مما سمعته من السيد أرسيد ليونيدس نفسه أن الوصية في خزانته، فهل تعلمين أين هي؟

فتحت ماجدا عينيها في دهشة وقالت: أنا؟ كلا طبعاً! لا تقل لي إن تلك المرأة البغيضة قد أعدمتها.

فرفع المحامي سبابته محذراً وقال: كلا يا سيدتي، لماذا تلقين الاتهامات جزافاً؟ كل ما في الأمر أننا نريد أن نعرف أين احتفظ السيد ليونيدس بوصيته.

- لقد أرسلها إليك. أنا متأكدة، لقد قال لنا ذلك بنفسه.

فلم يكلف جيتسكيل نفسه عناء تكذيبها وقال: لقد فحص رجال الشرطة أوراق السيد ليونيدس، سأحدث في الأمر إلى المفتش.

وانصرف، فصاحت ماجدا: لقد أهدمت الوصية، لا شك عندي في ذلك!

فقالت صوفيا: كلا يا أماه، إنها لن تقدم على مثل هذه الحماسة.

- حماقة؟ ألا تعلمين أنه في حال عدم وجود وصية فإن التركة كلها تؤول إليها؟
- صه، هذا هو جيتسكيل.

ودخل المحامي برفقة المفتش ودخل فيليب في إثرهما. قال المحامي: لقد فهمت مما صرح لي به السيد ليونيدس أنه قد أودع الوصية في البنك.

فهز تافرر رأسه وأجاب: لقد اتصلت تليفونياً بالبنك وقيل لي إن السيد ليونيدس لم يودع به سوى بعض الأسهم والسندات، وليست هناك أية أوراق خاصة.

بين أولاد فيليب الثلاثة، صوفيا وجوزفين وأوستاش، على أن ينال الأخيران نصيبهما متى بلغا سن الرشد. أظن أنني لم أخطئ يا سيد جيتسكيل؟

أجاب المحامي: الواقع أن هذا هو ملخص الوصية التي كتبتها وفقاً لتعليمات السيد ليونيدس.

فقال روجر: لقد تلاها أبي علينا وطلب إلينا أن نبدي ملاحظتنا عليها، ولكن لم تكن ثمة ملاحظات.

قالت الأنسة دي هافيلاند مستدركة: بل كانت هناك تعليقات بريندا.

فقالت ماجدا بسرور واضح: نعم، لقد قالت إنها لا تطيق سماع الحديث عن موت عزيزها أرسيد وإنها لا تريد جنيتها واحداً من أمواله إذا مات.

قالت دي هافيلاند باحتقار: كان تعليقاً مبتذلاً لا ينم عن البيئة التي نشأت فيها.

لم يكن ثمة شك في أنها تمقت بريندا كل المقت. وسأل تافرر: وماذا حدث بعد قراءة الوصية؟

فقال روجر: وقع أبي على الوصية.

- متى وكيف؟

نظر روجر إلى زوجته مستنجداً، فقالت كليمنسي: هل تريد أن تعرف كل التفاصيل عن توقيع الوصية؟

- نعم، إذا تفضلت.

- لقد وضع السيد أرسيد الوصية أمامه على المكتب وطلب إلى أحدنا (وأعتقد أنه روجر) أن يدعو خادمه الخاص جونسون، ولما جاء جونسون طلب إليه السيد أرسيد أن يأتي بالوصيفة جانيت وولمر، وجاءت الوصيفة، وحينئذٍ وقع السيد أرسيد الوصية وطلب إلى الخدم والوصيفة أن يوقعا تحت إمضائه شاهدين.

قال جيتسكيل: هذا إجراء قانوني لا غبار عليه.

فقال تافرر: وبعد ذلك؟

- بعد ذلك شكرهما وطوى الوصية ووضعها في غلاف وقال إنه سيبعث بها إلى السيد جيتسكيل في اليوم التالي.

أجال تافرر ببصره بين الحاضرين وسأل: هل تم توقيع الوصية على هذا النحو؟

أوماً الجميع برؤوسهم علامة الإيجاب، فقال محدثاً كليمنسي: لقد قلت إنه وضع الوصية أمامه على المكتب، هل كنت على مقربة منه وقتئذٍ؟

- كنت على بعد ثلاثة أو أربعة أمتار.

- حينما قرأ السيد ليونيدس الوصية، هل كان جالساً أمام مكتبه؟

- نعم.

- وبعد أن قرأ الوصية، هل نهض وابتعد عن المكتب قبل أن يوقع عليها؟

- كلا.

- هل كان بوسع الخادمين قراءة الوصية وهما يوقعانها؟
- كلا، فقد وضع السيد أرسفيد على السطور المكتوبة
قطعة ورق بيضاء.

قال فيليب: لقد فعل ذلك لسبب، هو أن مضمون الوصية
لا يعنيهما.

فأخرج المفتش من جيبه غلافاً مستطيلاً قدمه إلى
المحامي وهو يقول: ألق نظرة على ما في هذا الغلاف وأنبئي
بما تراه.

فأخرج المحامي من الغلاف ورقة بسطها وألقى عليها
نظرة سريعة، وارتسمت على وجهه دلائل الدهشة وهتف: هذا
عجيب! هل لي أن أسألك أين وجدت هذه الورقة؟

- في خزانة السيد ليونيدس بين أوراقه.

فسأله روجر: ماذا في هذه الورقة؟

أجاب المحامي: إنها الوصية التي أرسلتها إلى أبيك
لتوقيعها، والعجيب أنه لم يوقع عليها رغم ما قررتموه جميعاً.

فقال المفتش: لعلها صورة من الوصية.

- إن الصورة عندي في مكتبي.

صاح روجر: ولكن هذا مستحيل.

فسأله تافرنر: هل كان أبوك قوي البصر؟

- إنه يستعمل النظارات في القراءة والكتابة.

- هل استعملها في ذلك المساء؟

- نعم، ثم خلعتها بعد التوقيع.

فقالت كليمنسي مؤكدة: نعم، ذلك ما حدث تماماً.

- هل أنتم جميعاً على يقين من أن أحداً لم يقترب من المكتب قبل توقيع الوصية؟

قالت صوفيا: لم يقترب أحد من المكتب ولم يبرح جدي مكانه لحظة واحدة.

- هل كان المكتب في مكانه الحالي؟ ألم يكن قريباً من أحد الأبواب أو إحدى النوافذ؟

- كلا، كان في مكانه حيث رأيته.

فقال تافرر: ليس ثمة شك في أن السيد ليونيدس قد وقع بإمضائه على الوصية التي قرأها عليكم، وما أريد معرفته الآن هو كيف استبدل الوصية التي تحمل توقيعته وتوقيع الشاهدين بهذه الوصية الخالية من التوقعات؟

قال روجر: ألا يحتمل أن يكون بعضهم قد عمل على إزالة التوقعات؟

- إن عملية الإزالة لا بد أن تترك أثراً، ومن المرجح أن هذه الورقة ليست الوصية التي أرسلها السيد جيتسكيل إلى السيد أرسيد ليونيدس والتي تلاها الأخير عليكم.

فصاح المحامي: هذا مستحيل، أقسم أنها نفس الوصية الأصلية، إن في أعلى الورقة إلى اليسار صورة صغيرة لطائرة، وها هي الصورة.

قالت الأنسة دي هافيلاند: المهم هو أن نعرف موقفنا الآن.

فقال جيتسكيل: إن هذه الوصية تجب سائر الوصايا التي كتبها أرسيد ليونيدس من قبل، ويوجد أكثر من شاهد على أنها تتضمن رغباته وأنها الوثيقة التي أعتقد أنه وقع عليها. فرغباته إذن معروفة، ولكننا نجد أنفسنا الآن حيال مشكلة قانونية في غاية الدقة.

نظر تافرر إلى ساعته وقال: أخشى أن أعوقكم عن الطعام.

فقال فيليب: لماذا لا تتناول الغداء معنا أيها المفتش؟

- شكراً لك يا سيدي، ولكنني على موعد مع الدكتور جراي.

- وأنت يا سيد جيتسكيل، ألا تتناول الطعام معنا؟

- بكل سرور يا فيليب.

نهض الجميع، وهمست في أذن صوفيا بأني أوثر الرحيل فقالت لي إن ذلك أفضل.

وهكذا غادرت الغرفة مهرولاً لألحق بالمفتش تافرر.

* * *

دخلت مكتب أبي في اسكتلنديارد حينما كان المفتش تافرير يعرض عليه نتيجة أبحاثه. كان يقول وعلى وجهه دلائل الامتعاض: ها أنت ترى أنني قد سبرت أغوارهم وعرفت ما في سرائرهم، وماذا كانت النتيجة؟ لا شيء، لم أهدد إلى القاتل ولا إلى الدافع للجريمة، وكل ما عرفته عن المرأة والشاب أنها كانت ترمقه بنظرات والهة وهي تقدم له أقداح القهوة.

فقلت له: يبدو أنني أعرف ما هو أهم من ذلك يا تافرير.

- حقاً؟ حدثني إذن بما تعرف.

فجلست وأفرغت ما في جعبتي، قلت: كان روجر وزوجته يتأهبان للسفر إلى الخارج يوم الثلاثاء القادم، وقد حصل خلاف شديد بين روجر وأبيه في يوم وفاة هذا الأخير على إثر اكتشاف الأب بعض الأخطاء الخطيرة في الشركة التي يديرها الابن، وقد اعترف الابن بذنبه.

فهتف تافرير وقد احمر وجهه: من أين علمت بكل هذا بحق الشيطان؟ إذا كنت قد استجوبت الخدم فإن...

- أنا لم أتصل بالخدم، وهذه المعلومات قد أستقيها من شرطي سري خاص.

- ماذا تقول؟

- يبدو كما في القمص أن المخبر السري الخاص قد تفوق على رجال الشرطة الرسميين. وأنه يعرف أكثر مما ذكره لي فيما أعتقد.

فتح تافرnr فمه ليتكلم ولكنه لم ينطق بحرف. كانت هناك أسئلة كثيرة تتحير على شفثيه ولا يعلم بأي منها يبدأ، وأخيراً قال: إذن روجر هو ضالتنا؟

فحدثته بكل ما ذكرته لي جوزفين. وأعترف بأنني قد فعلت ذلك على كره مني، فقد كنت أعطف على روجر ولا أود أن أطلق رجال الشرطة في إثره، لكنني كنت أعلم أنه لو صح ما قالته جوزفين فإن التحقيق لا بد أن يأخذ اتجاهاً آخر، إذ سيجد الشرطة في اختلاس روجر لأموال الشركة المتحدة للمواد الغذائية وفي اكتشاف الأب هذا الاختلاس تفسيراً للجريمة، خاصة وأن روجر كان ينوي مغادرة إنجلترا قبل أن تظهر الحقيقة.

قال أبي: يجب أولاً أن نعرف حقيقة مركز الشركة.

فقال تافرnr: إذا كانت الشركة تواجه متاعب مالية فإن ذلك ينهي الموضوع وتكون الجريمة قد حدثت على النحو التالي: دعا العجوز ابنه روجر ووجه إليه الاتهام، فانهار الابن واعترف، وكانت بريندا وقتئذٍ في السينما فخرج روجر من

غرفة أبيه وذهب إلى الحمام وأفرغ إحدى زجاجات الأنسولين وملاًها بمادة الإيزيرين، وربما يكون قد طلب من زوجته أن تفعل ذلك فإنها روت لنا أنها ذهبت إلى شقة العجوز بدعوى البحث عن غليون زوجها هناك. إنها امرأة قوية الإرادة رابطة الجأش، ومن الممكن جداً أن ترتكب هذه الجريمة.

فأطرقت برأسي موافقاً واستطرد تافرير قائلاً: والرأي عندي أنها أقدر من زوجها على القيام بهذا الدور. ثم إن روجر ليس الرجل الذي يفكر في الإيزيرين كوسيلة لارتكاب الجريمة، فالسم كان دائماً لعبة المرأة.

قال أبي: لا أستبعد أن تكون فعلت ذلك في محاولة يائسة لإنقاذ زوجها.

* * *

في اليوم التالي دعاني أبي إلى مكتبه، وهناك وجدت المفتش تافرير ووجهه يتهلل بشراً. وابتدريني أبي بقوله: إن الشركة المتحدة للمواد الغذائية تواجه متاعب مالية خطيرة.

وأضاف تافرير: وقد يعلن إفلاسها بين لحظة وأخرى. لقد قمنا بتحرياتنا بحذر شديد حتى لا نشير فزع حملة الأسهم أو انتباه روجر ليونيدس، فعلمنا أن مركز الشركة سيء إلى أقصى حد وأنها قد تدهورت باطراد خلال السنوات الأخيرة بسبب سوء الإدارة.

- سوء إدارة روجر ليونيدس؟

- طبعاً، فهو رئيس مجلس الإدارة.

- وهل اختلس شيئاً من أموال الشركة؟

- كلا، نحن لا نعتقد أنه اختلس مالا. قد يكون قاتلاً ولكنه ليس محتالاً، ولعل أبرز صفاته أنه لا يحسن الحكم على الأمور أو الأشخاص. كان يعمل على التوسع حيث يجب الانكماش وبالعكس، وقد وضع ثقته فيمن لا يستحقها ومنح سلطات واسعة لأشخاص لا يحسنون استخدامها. صفوة القول إنه كان يفعل دائماً ما لا يجب أن يفعله. كانت الشركة عندما تسلم إدارتها منجماً للذهب ولكنه أضاعها بغبائه وعجزه، وقد علمت أنه احتفظ بعدد كبير من الموظفين الذين لا يصلحون للعمل لمجرد أنه يعطف عليهم شخصياً أو لأنهم قد قضاوا في الشركة مدة طويلة، كما علمت أنه بدد أموالاً طائلة في مشروعات غير مثمرة.

- وهل أقدم على عمل يضعه تحت طائلة القانون؟

- كلا.

- إذن لماذا ارتكب جريمة القتل؟

- لأنه لم يكن هناك ما ينقذ الشركة من الإفلاس إلا أن يحصل قبل يوم الأربعاء القادم على مبلغ كبير من المال.

- كالمبلغ الذي سيرثه؟

- تماماً.

- ولكنه لن يحصل على نصيبه من الميراث فوراً.

- لقد كان بحاجة إلى الثقة والضمان، فإذا أذيع أنه سيرث فإن ذلك يكفي.

قال أبي: ألم يكن أيسر عليه أن يذهب إلى أبيه ليطلب معونته؟

فقال تافرني: أعتقد أنه ذهب إلى أبيه لهذا الغرض وأن الحديث الذي دار بينهما هو ذلك الحديث الذي سمعته جوزفين، ومن المرجح أن العجوز رفض، ولعله وجد أنه لا فائدة من محاولة استرداد الخسائر. لقد كان رجلاً حصيفاً يضمن بماله أن يضيع سدى.

وهنا تذكرت ما قالته جوزفين عن رفض العجوز تمويل مسرحية ماجدا لأنه قدر لها السقوط، وأثبتت الأيام سلامة تقديره. لقد كان العجوز كريماً مع أولاده وذويه، ولكنه كان أحرص من أن يبدد أمواله في مشروعات محكوم عليها بالفشل، ويبدو أن الشركة المتحدة للمواد الغذائية كانت بحاجة إلى مئات الألوف من الجنيهات لكي تقف على قدميها، ولكن العجوز رفض تقديم هذا المبلغ فلم يجد روجر وسيلة لتجنب الإفلاس إلا أن يقتل أباه. هذا إذن هو الدافع الذي كنا نبحث عنه.

ونظر أبي إلى ساعته وقال: لقد دعوته للحضور وسيصل بين لحظة وأخرى.

- من، روجر؟

- نعم.

وتذكرت أسطورة العنكبوت الذي دعا الذبابة لدخول غرفته. كان كل شيء معداً لاقتناص الفريسة، فأبي يتحرق شوقاً للقاء المتهم، وفي أحد الأركان ضابط على استعداد لتسجيل كل ما يقال. وأخيراً جاء روجر، قال والكلمات تقتتل في فمه كالعادة: هل طلبتم مقابليتي؟ هل وجدتم أدلة جديدة؟ آه، معذرة يا تشارلز، الحق أنني لم أرك، شكراً لك على حضورك. ولكن حدثني يا سير آرثر...

لكن أبي كان يجلس جلسة رسمية، وقد بادره بالعبارات التقليدية التي توجه عادة إلى كل متهم من أنه سيحاسب على كل كلمة ينطق بها وعن حقه في الامتناع عن الإجابة إلى أن يحضر محاميه.

وهز روجر كتفيه ببساطة وقال إنه يعرف إجراءات الشرطة وإنه ليس بحاجة إلى محام، فقال أبي: لقد دعوتك يا سيد ليونيدس لا لأنهي إليك معلومات جديدة وإنما لأطلب إليك الإدلاء بما لديك من معلومات حبستها عنا.

فدهش روجر وقال: ولكني أنبأتكم بكل شيء.

- لا أظن ذلك. هل قابلت أباك بعد ظهر اليوم الذي توفي فيه؟

- نعم، تناولت الشاي معه، وقد قلت لكم ذلك.

- صحيح أنك قلت ذلك ولكنك لم تذكر شيئاً عن الحديث الذي دار بينك وبينه.

- كان حديثاً عادياً.

- عن أي شيء؟

- عن أحداث اليوم وعن المنزل وصوفيا...

- ألم تتحدثا عن الشركة المتحدة؟

وكنت حتى تلك اللحظة أرجو أن يكون ما سمعته من جوزفين مجرد أوهام من صنع خيالها، ولكن هذا الرجاء تبدد حالما رأيت اضطراب روجر وشحوب وجهه. تهالك على أحد المقاعد وغمغم وهو يدفن وجهه بين كتفيه: يا إلهي!

وابتسم تافرير كمن يريد أن يقول: "لقد وقع الفأر في المصيدة!" وقال أبي: أتعترف يا سيد ليونيدس بأنك لم تكن صريحاً معنا؟

- ولكن كيف علمتم؟ كنت أظن أن لا أحد يعلم.

فقال له أبي: إن الشرطة تعرف عملها. ثم استطرد قائلاً: ألا ترى الآن يا سيد ليونيدس أن من مصلحتك أن تصارحننا بالحقيقة؟

- طبعاً، سأصارحك بكل شيء، فماذا تريد أن تعرف؟

- هل صحيح أن الشركة المتحدة على شفا الإفلاس؟

- نعم، لا مناص من إفلاس الشركة. ليت أبي فقط قد مات دون أن يعلم ذلك، إنني أشعر بالخجل والعار.

- هل سيؤدي إفلاس الشركة إلى إجراءات جنائية؟

اعتدل روجر في جلسته ورفع رأسه بكبرياء وأجاب: كلا طبعاً. سنتوقف عن العمل ولكن بشرف، وسيحصل الدائنون

على أموالهم كاملة حتى لو صفت كل ممتلكاتي... كلا، إن ما يخلني هو أنني لم أكن جديراً بالثقة التي شرفني بها أبي. لقد وضعني على رأس أقوى شركاته وأعزها عليه ولم يتدخل قط في أعمالي ولم يسألني عما أفعل، كانت ثقته بي كاملة ولكني لم أكن جديراً بها.

فسأله أبي بجفاء: إذا لم تكن هناك إجراءات قانونية تخشاها فلماذا فكرت في الفرار مع زوجتك إلى الخارج دون أن تخطر أحداً؟

- هل تعلم ذلك أيضاً؟

- نعم يا سيد ليونيدس.

- أنت إذن لا تعرف موقفي. كان مستحيلاً عليّ أن أقابل أبي وأصارحه بالحقيقة، ولو فعلت لظن أنني أطلب مساعدته ولسارع إلى مساعدتي دون تردد لأنه كان يحبني، ولكني لم أرد ذلك. لم أكن أريد للشركة أن تستمر لأنني خشيت أن أتعثر مرة أخرى. إنني لست كفواً لإدارة شركة ضخمة كهذه. كنت أعلم منذ البداية أنني لست في ذكاء أبي، ولكني بذلت قصارى جهدي وفشلت. لا أحد يعلم كم شقيت لأنقذ الشركة على أمل ألا يعلم الرجل الطيب الكريم بحقيقة الموقف، ولكن جهودي ذهبت سدى. وجاءت اللحظة التي أدركت فيها أنه لا مناص من الإفلاس، فبحثت الموقف مع زوجتي، وقررنا في النهاية ألا نصارح أحداً بالحقيقة وأن نرحل قبل أن تهب العاصفة. كان في نيتي أن أترك رسالة لأبي أوضح له فيها كل شيء وأتوسل إليه أن يصفح عني، وقدّرت أن تصله الرسالة

حين تكون الشركة قد انهارت وفات أوان إنقاذها. وقد صحّت
عزيمتي على أن أشق طريقي في الحياة من جديد في أي بلد
آخر. وأنا أعلم أن الحياة لن تكون سهلة بالنسبة إليّ أو بالنسبة
إلى كليمنسي التي ستضحى بالكثير، ولكنها لم تحجم عن أية
تضحية، إنها امرأة عظيمة ورائعة.

فقال أبي بنفس اللهجة الجافة: لماذا عدلت إذن؟

- عدلت؟

- نعم، لماذا ذهبت إلى أبيك في النهاية لتطلب معونته؟

فحملك روجر في دهشة وقال: أنا لم أطلبه بأية معونة.

- إنني أريد الحقيقة يا سيد ليونيدس.

- هذه هي الحقيقة. أنا لم أذهب إليه، بل هو الذي أرسل
في طلبي، ويبدو أنه عرف الحقيقة بطريقة ما فواجهني بها
واضطرت أن أعترف له بكل شيء، وقلت له إن خسارة المال
لا تعدل عندي إحساسي بأنني لم أكن أهلاً للثقة.

ازدرد روجر لعبابه ومضى في حديثه، قال: لم يؤنّبني
وكان رقيقاً غاية الرقة، فصارحته بأنني لا أريد مساعدته وأنني
مصمم على مغادرة البلاد، ولكنه أبى أن ينصت إليّ وصمم
على ضرورة إنقاذ الشركة.

فقال أبي بلهجة صارمة: هل تريدنا أن نصدق أن أباك

كان يعتزم معاونتك مالياً؟

- نعم، لقد كتب على الفور رسالة إلى البنك ضمنها تعليماته لهذا الغرض.

نظر إليه أبي بارتياح، فقال روجر وقد احمرّ وجهه خجلاً: هذه الرسالة لا تزال معي. كان ينبغي أن أرسلها بالبريد ولكنني نسيت في غمرة الاضطراب الذي أعقب موت أبي. أظن أنها معي الآن.

وبحث في محفظته فوجد الرسالة وقدمها إلى أبي وهو يقول: اقرأها بنفسك ما دمت لم تصدقني.

ففض أبي الرسالة، وأطل تافرر من فوق كتفه وقرأها معه. وكانت تتضمن (كما علمت فيما بعد) أمراً إلى البنك ببيع عدد من الأسهم والسندات وإرسال مندوب في صباح اليوم التالي ليتلقى من أرسيد ليونيدس تعليمات خاصة بالشركة المتحدة للمواد الغذائية.

* * *

إذن لم يكن روجر يكذب حين قال إن أباه كان مصمماً على إنقاذ الشركة. وقال تافرر: سنحتفظ بهذه الرسالة يا سيد ليونيدس وسنعطيك إيصالاً بها.

قال روجر وهو ينهض: هل لديكما أسئلة أخرى؟ هل اقتنعتما؟

فقال تافرر وهو يقدم إليه الإيصال: ماذا فعلت بعد أن أخذت الرسالة ووضعتها في جيبيك يا سيد ليونيدس؟

- ذهبت إلى شقتي، وكانت زوجتي قد عادت فأنبأتها
كم كان أبي عظيماً ورائعاً. وغلبني التأثر والانفعال فلم أدر ماذا
أفعل.

- عندما ذهبت لمقابلة أبيك هل عرجت على الحمام
المتصل بغرفته؟

- لا أظن، كلا. أنا واثق من أنني لم أدخل الحمام، هل
تظن أنني الذي...

فلم يدعه أبي يعبر عن استنكاره. نهض بسرعة ومد يده
وهو يقول: شكراً لك يا سيد ليونيدس، لقد زودتنا بمعلومات
على جانب عظيم من الأهمية كان من الخطأ أن تكتمها طوال
هذه المدة.

وانصرف روجر، فتناولت رسالة أرسيد ليونيدس وكانت
لا تزال على مكتب أبي، وقرأتها. قال تافرير وهو لا يزال
يتعلق بأذيال الأمل: ألا يحتمل أن تكون الرسالة مزورة؟

فقال أبي: لا أظن ذلك، وأعتقد أننا يجب أن نفهم
الموقف على النحو التالي: كان العجوز يستعد لإنقاذ ابنه من
الإفلاس، وكان أقدر على ذلك من ابنه بعد أن يرث. ونحن
نعلم الآن أنه لا توجد وصية وأن حق روجر في الميراث
مشكوك فيه، ومعنى هذا أن الشركة لا بد أن تفلس، ومعناه
أيضاً أن روجر وزوجته لم تكن لهما أية مصلحة في وفاة
العجوز. بل على العكس...

وكف عن الكلام فجأة كما لو كان قد خطر له خاطر

جديد، وبعد لحظة قال ببطء: إذا كان أرسفيد ليونيدس قد عاش ولو يوماً آخر لنجا روجر من الإفلاس، ولكنه لم يعيش ومات بعد ساعة أو نحو ساعة.

فقال تافرر: هل تعني أن في البيت من يهمله إفلاس روجر؟

فصمت أبي قليلاً ثم قال: أو من يهمله أن تبقى ثروة العجوز كما هي، فلا يبدد جانباً منها لتقويم شركة لا أمل فيها. وبهذه المناسبة، من يرث العجوز في حالة اختفاء الوصية؟ - بريندا ليونيدس.

- إذن لا شك أن لها ضلعاً في الجريمة.

* * *

قال لي أبي قبل أن أغادر: إن خير ما تفعله يا بني هو أن تحاول كسب ثقة هؤلاء الناس، وقد كانت صوفيا على حق حين قالت لك إن مصلحتكما أن تظهر الحقيقة. ثم استطرد قائلاً وأنا أهم بالانصراف: شيء آخر أريد أن أقوله لك، اسهر على الصغيرة فإني أخشى أن يصيبها سوء.

- تعني جوزفين؟

- نعم، إن في ذلك البيت قاتلاً لا يفتقر إلى الدهاء ومضاء العزيمة، وجوزفين فيما يبدو تعلم أشياء كثيرة.

- مما لا شك فيه أنها كانت تعلم كل شيء عن روجر. أمر واحد أخطأت فيه هو أن روجر لم يكن نصاباً، أما باقي

معلوماتها فكانت صحيحة.

- أنا شخصياً أعول دائماً على كلام الصغار ولا أهمله، وخير وسيلة لاستدراجهم إلى الكلام أن لا توجه إليهم أسئلة مباشرة. دعهم يتكلمون على هواهم ولا تسألهم عن موضوع بذاته، ومن الواضح أن جوزفين تريد أن تفضي إليك بأمور لا أعلم بها، ومهمتك في هذه الحالة هي أن تعيرها آذاناً صاغية وتشجعها على الكلام. إن من رأيي أن تتحدى ذكاءها فتقول لها مثلاً إنها لا تعرف شيئاً وسوف تكون النتيجة أنها ستبذل قصارى جهدها لتثبت العكس. المهم هو أن تسهر على سلامتها فقد يكون هناك من يعتقد أنها تعرف أكثر مما ينبغي.

* * *

غادرت مكتب أبي وأنا أشعر بالقلق ووخز الضمير. صحيح أنني نقلت إلى تافرير كل ما قالته جوزفين عن روجر، ولكنني لم أذكر كلمة واحدة عن الرسائل الغرامية التي زعمت الصغيرة أن بريندا ولورانس يتبادلانها. وحاولت أن أجد لنفسني عذراً فقلت إن حكاية الرسائل قد لا تكون صحيحة، وإذا صحت فقد لا تكون ذات أهمية. ولكن الحقيقة التي لا شك فيها هي أنني كنت أنفر من اتهام بريندا وأشعر بالعطف عليها لمجرد أنها وحيدة في بيت يمقتها كل أهله، وإذا كانت هناك رسائل غرامية فمن الأكيد أن تافرير وأتباعه سيعثرون عليها عاجلاً أم آجلاً، فليس إذن ثمة ما يدعوني إلى تنبيههم. يضاف إلى ذلك أن بريندا أكدت لي أنها ليست هناك أية صلة عاطفية بينها وبين لورانس، وأنا أميل إلى تصديقها أكثر مما أصدق تلك الشيطانة الصغيرة جوزفين.

* * *

واتصلت تليفونياً بصوفيا لأسألها عما إذا كانت تسمح لي بزيارتها فأجابت على الفور: بكل تأكيد يا تشارلز.

- كيف تسير الأمور في البيت؟

- لا أعلم، ما زال رجال الشرطة يفتشون.

- عم يبحثون؟

- ليست لدي أية فكرة. إن وجودهم يشد أعصابنا، فحاول أن تأتي بأسرع ما تستطيع لأنني سأجن إذا لم أجد من أحدثه.

فاستأجرت إحدى سيارات الأجرة وذهبت إلى بيتها. ووجدت الباب مفتوحاً فترددت بين أن أقرع الجرس أو أن أدخل مباشرة، وقبل أن أقرر شعرت بحركة خلفي، فنظرت ورأيت جوزفين ترقبني من بعيد ووجهها الصغير يكاد يختفي وراء تفاحة ضخمة تقضمها. اقتربت منها وحييتها، ولكنها لم تجب وتراجعت إلى مقعد خشبي على حافة حوض صغير تسبح فيه الأسماك الملونة، فلحقت بها ورأيتها تنظر إليّ من فوق التفاحة ببعض الاستنكار. قلت لها: هأنذا قد عدت يا جوزفين. ولكنها لم تجب. وضايقني صمتها فقلت: هل هذه التفاحة ناضجة؟ فتنازلت أخيراً وأجابت: إنها جافة.

- هذا أمر يؤسف له، أنا لا أحب التفاح الجاف، لماذا

لم تردي تحيتي عندما حييتك؟

- لأنها لا تعني شيئاً.

- لماذا؟

فابتلعت ما في فمها قبل أن تجيب: لأنك تحدثت إلى رجال الشرطة.

فدهشت، ولاحظت دهشتي واستطردت قائلة: نقلت إليهم ما ذكرت لك عن العم روجر.

- ولكنني فعلت ذلك لمصلحة الجميع يا جوزفين، ورجال الشرطة يعلمون الآن أنه لم يقدم على عمل مخالف للقانون.

فرمقتني باحتقار وقالت: يا لك من غبي!

- أنا آسف يا جوزفين.

- إن العم روجر لا يهمني، وإذا كنت ناقمة عليك فلأن ما فعلته يتعارض مع أصول عمل رجال التحري. ألا تعلم أنه ليس من الحكمة الإفضاء لرجال الشرطة بشيء قبل الانتهاء من التحريات؟

- أكرر لك أسفي يا جوزفين.

- لقد فقدت ثقتي فيك.

عبرت لها عن أسفي للمرة الثالثة، وحينئذ انبسطت أسارير وجهها وقضمت قطعة كبيرة من التفاحة. قلت: على كل حال كان رجال الشرطة سيعلمون في النهاية، فهذه أمور لا يمكن إخفاؤها طويلاً.

- لأنه سيفلس؟

- أعتقد أن ذلك أمر لا مناص فيه.

- سيناقشون هذا الموضوع الليلة، وسيعقدون اجتماعاً يشترك فيه أبي وأمي والعم روجر والخالة إديث، وقد عبرت

الخالة عن استعدادها لوضع كل نصيبها من الميراث تحت تصرف روجر. العقبة الوحيدة هي أنها لم تحصل على نصيبها بعد. أما أبي فإنه يقول إن المشكلة تخص روجر وحده ولا شأن له بها وإن من الغباء محاولة استرداد الخسارة بمزيد من الخسائر، وهذا أيضاً هو رأي أمي التي تريد أن يحتفظ أبي بنقوده لتمويل مسرحية إديث تومبسون. وبهذه المناسبة: هل تعرف قصة إديث تومبسون؟ لقد كانت متزوجة وكانت تكره زوجها لأنها أحببت شاباً يدعى بايووترز، وانتهى الأمر بأن طعن الشاب زوج عشيقته فقتله.

ومرة أخرى لم يسعني إلا الإعجاب بوفرة معلومات هذه الصغيرة، ولكنني أردت استدراجها إلى ما هو أهم، فقلت لها: أظن أنكِ قلت يا جوزفين إنك قد وفقت إلى معرفة القاتل.

- وماذا في ذلك؟

- ما اسمه؟

فنظرت إليّ باحتقار، وأدركت غرضها. قلت: فهمت، تريدني أن أنتظر حتى تفرغي من تحرياتك، ولكنني أعدك بأن لا أذكر شيئاً للمفتش تافرر.

- مازلت أبحث عن أدلة.

- أية أدلة؟

- الرسائل.

- الرسائل؟ أنت لم تحدثيني عنها. أية رسائل؟

- تلك التي تبودلت بين بريندا ولورانس ، لقد ذكرت لك ما أعرفه عنها.

- أنا لا أصدق أن هناك مثل هذه الرسائل.

فحملت في وجهي وترددت... وسمعت في هذه اللحظة صوتاً كالذي يحدثه تحطم غصن جاف تحت قدمي إنسان. قلت لها: على رسلك يا جوزفين، يخيل إليّ أنك لا تعرفين شيئاً على وجه اليقين.

ولكنها لزمت الصمت ولم تقع في الفخ، ولم يسعني إلا التسليم بالهزيمة. قلت: يجب أن أذهب الآن لمقابلة صوفيا، تعالي معي.

- كلا، سأبقى هنا.

- لا، يجب أن تأتي معي.

وأمسكت بيدها وأرغمتها على النهوض. فدهشت في البداية وقاومت، ولكنها ما لبثت أن استسلمت وتبعتهني إلى البيت صاغرة. لم أدر على الفور ماذا حملني على إرغامها على مرافقتي ولكني أدركت السبب وأنا أدخل البيت. كان السبب هو ذلك الغصن الجاف الذي سمعته يتحطم تحت قدمي إنسان ربما كان يرقبنا دون أن نراه.

* * *

سمعت لغطاً في قاعة الاستقبال، فوقفت ببابها متردداً، ثم قررت ألا أدخل وواصلت السير في دهليز طويل مظلم ينتهي بباب ما كدت أقرب منه حتى فتح وانبعث منه نور قوي، ورأيت في إطار الباب امرأة متقدمة في السن بدينة الجسم ترتدي مئزراً ناصع البياض، فأدركت على الفور أنها ناني. لست أذكر أنني قابلتها من قبل، ولكنها رغم ذلك بادرتني بقولها: ألسنت السيد تشارلز؟ ادخل ودعني أقدم لك قدحاً من الشاي.

* * *

كان المطبخ فسيحاً فجلست أمام مائدة كبيرة في وسطه، وقدمت لي كوب شاي وبعض البسكويت. كنت في الخامسة والثلاثين ولكنني أحسست معها بأنني ما زلت طفلاً في الرابعة من عمره. وقالت: ستسر الآنسة صوفيا متى علمت بقدمك، لقد بدأت أعصابها تنهار. ثم أضافت باستياء: مثل الجميع. فنظرت إلى خلفي وسألت: أين جوزفين؟ لقد جاءت معي.

فهزت ناني رأسها وقالت: إنها مخلوقة عجيبة لا هم لها إلا أن استراق السمع على الأبواب أو الكتابة في دفتر صغير. لا أدري ماذا تكتب في دفتر صغير تحتفظ به دائماً ولا تتركه. كان ينبغي أن يبعثوا بها إلى المدرسة لتلهو مع الأطفال الذين في مثل سنها. لقد قلت ذلك للآنسة إديث فوافقتني، ولكن السيد العجوز آثر أن تبقى هنا.

- أظن أنه كان يحبها كثيراً؟

- كان يحبهم جميعاً يا سيدي.

وفُتح الباب في هذه اللحظة ودخلت صوفيا فهتفت: تشارلز! أنت هنا؟ كم أنا سعيدة بقدمك.

وحملت ناني بعض الصحف وذهبت بها إلى غرفة داخلية وأغلقت بابها، فنهضت لتحية صوفيا واحتويتها بين ساعدي ولم أتمالك من أن أهتف: إنك ترتجفين أيتها العزيزة، فماذا حدث؟

- إنني خائفة يا تشارلز، خائفة.

- إذا كنت تريدين مغادرة هذا البيت...

فقاطعتني: كلا يا تشارلز. يجب أولاً أن نعرف الحقيقة، وسأبقى هنا حتى نعرفها. إنها تجربة مخيفة حقاً، وكلما فكرت في أنه يوجد بهذا البيت إنسان أراه كل يوم وأتحدث إليه ولعله يتسم لي في بعض الأحيان في الوقت الذي يخطط فيه لارتكاب أبشع الجرائم...

ماذا كان بوسعي أن أقول لها؟ وهل تجدي العبارات

المألوفة المبتدلة في طمأنة مثقفة من طراز صوفيا؟ قالت بصوت خافت: إن ما يزعجني أكثر من أي شيء آخر هو احتمال أن لا نعرف أبداً من هو هذا الإنسان.

كان الاحتمال بعيداً، ولكنه ذكرني بسؤال كان في نيتي أن ألقيه عليها، قلت لها: حدثيني يا صوفيا، من في هذا البيت كان يعلم بموضوع الإيزيرين؟ أو بالتحديد: من كان يعلم أولاً بأن كمية معينة من هذا السم يمكن أن تقتل؟

- لا أدرك ما ترمي إليه يا تشارلز، ولكن لا فائدة من ذلك، لقد كنا جميعاً نعرف هذه الأمور.

- ولكن...

- أصغ إليّ، حدث يوماً أننا كنا نتناول القهوة مع جدي بعد الطعام، وكانت عيناه تؤلمانه منذ بعض الوقت. وقد اعتادت بريندا أن تسكب قطرات من الإيزيرين في عينيه كل ليلة، وهي شغوفة بالاستفسار عن كل شيء، فسألت عن معنى العبارة المكتوبة على قنينة الإيزيرين: "قطرات تستعمل من الظاهر"، فأوضحنا لها المعنى. فسألت: وماذا يحدث للإنسان إذا شرب من هذه القنينة؟ فابتسم جدي وأجاب: إذا حدث أن أخطأت بريندا وأعطتني حقنة من الإيزيرين بدلاً من الأنسولين فإنني قد أموت. فهتفت جوزفين بارتياح: يا إلهي! فقال جدي وهو لا يزال يبتسم: ولهذا يجب أن نحرض جميعاً على ألا ندع بريندا تخلط بين الإيزيرين والأنسولين، أليس كذلك؟

وصمتت صوفيا لحظة وقالت: لقد سمعنا جميعاً هذا الحديث، ولذلك قلت لك إن كل إنسان في هذا البيت يعرف

كل شيء عن الإيزيرين.

فلزمت الصمت ولم أجد ما أجيب به. كنت أرجو أن أجد في البيت شخصين أو ثلاثة أشخاص على الأكثر لهم من الدراية بخصائص الإيزيرين ما يساعدهم على استخدامه في ارتكاب جريمة قتل، ولكن وضح الآن أن العجوز قد قدّم بنفسه للجميع كافة المعلومات التي تساعدهم على الخلاص منه. ويبدو أن صوفيا أدركت ما يدور بخلدي لأنها ما لبثت أن هتفت: هذا مخيف، أليس كذلك؟

- لقد خطر لي خاطر.

- ما هو؟

- إن بريندا لم ترتكب الجريمة لسبب بسيط، هو أنها لا تستطيع الالتجاء إلى وسيلة عرفتموها معها من حديث العجوز ولا بد أنكم ستذكرونها.

- من يدري؟ ثم لا تنسَ أنها غبية وحمقاء.

- لا أظن ذلك. إنني كلما فكرت في الأمر ازددت اقتناعاً ببراءتها.

- أنت في قرارة نفسك تمنى ألا تكون هي القاتلة، أليس كذلك؟

فصمت، لم يكن في استطاعتي أن أقول لها: "كلا، إنني أتمنى أن تكون هي القاتلة". لماذا لم يكن ذلك في استطاعتي؟ هل لأنها وحيدة والجميع ضدها؟ ربما! هل لأن الإنسان مطبوع على التصدي لنصرة الضعيف الأعزل؟ ذلك محتمل!

ولكن الشيء المؤكد هو أنني شعرت بارتياح شديد حين رأيت ناني تخرج من الغرفة الخلفية وتقبل نحونا. لقد جاءت في الوقت المناسب، ولا بد أنها لاحظت فتورنا لأنها قالت: دعكما من هذا الحديث عن الجريمة والمجرمين فذلك من شأن رجال الشرطة.

فصاحت صوفيا: ألا تدركين أن في البيت قاتلاً أثيراً؟

- هراء، إنكم تتركون جميع الأبواب والنوافذ مفتوحة وكأنكم تدعون اللصوص والقتلة إلى التفضل بالدخول.

- نحن لا نتحدث عن اللصوص يا ناني، إن شيئاً لم يسرق من البيت.

- لم أقل إن شيئاً قد سُرق، إنما أردت أن أقول إن من المحتمل أن يكون القاتل شخصاً غريباً دخل من أحد الأبواب المفتوحة.

فنظرت إلى صوفيا ونظرت إليّ وابتسمنا. وقالت أخيراً: هلم بنا إلى قاعة الاستقبال يا تشارلز، هناك شبه مؤتمر عائلي كان مقرراً أن يعقد في المساء ولكنهم بكروا بعقده.

- لا أريد أن أبدو دخيلاً أو متطفلاً يا صوفيا.

- ما دمت ستتزوج من الأسرة فيجب أن تعرف أفرادها على حقيقتهم.

- وما الغرض من هذا المؤتمر؟

- بحث موقف العم روجر. أظن أنك تعرف مركز شركته، ولكن كان من الجنون أن تتوهم أنه قتل أباه. لقد كان يحبه حباً شديداً.

- الواقع أنني لم أشك فيه، كانت كل شكوكي تحوم حول كليمنسي.

- وهذا أيضاً خطأ، فإن كليمنسي لا يهتمها لو فقد روجر كل ثروته. إنها امرأة عجيبة لا تشعر بالسعادة إلا عندما ينقصها كل شيء، تعال.

وما أن دخلنا قاعة الاستقبال حتى ساد الصمت فجأة وتحولت إلينا جميع الأنظار. كانوا جميعاً هناك، فيليب يتربع على مقعد أحمر كبير بين نافذتين أشبه بقاض يهم بإصدار حكمه، ووجهه الوسيم جامد كأنه قُدَّ من صخر، وروجر يجلس بحوار المدفأة وشعره المشعث ورباط عنقه ينمان عن مدى إهماله لمظهره، وكليمنسي وراء زوجها وجسدها النحيل يبدو أشد نحولاً في مقعدها الكبير وعيناها تنظران بعيداً وكأنها لا تعبأ بشيء مما يدور حولها. إديث منزوية في مقعد العجوز وهي مرفوعة الرأس مطبقة الشفتين وأصابعها تعمل بإبرة التريكو بنشاط عجيب. أما ماجدا وأوستاش فكانا يجلسان جنباً إلى جنب على إحدى الأرائك وكأنهما لوحة برشة فنان كبير، هي بثوبها الأنيق الفضفاض وعنقها الجميل أشبه بإحدى الأميرات أو الدوقات وهو بوجهه الفني الوسيم الذي تبدو عليه دلائل السأم المقرون بالاستسلام المهذب.

رآني فيليب وقطب ما بين حاجبيه وقال: صوفيا، هذا

اجتماع عائلي ذو طابع خاص لبحث شؤون الأسرة.

فهمت بالاعتذار والانسحاب، ولكن صوفيا أجابت بثبات: أنا وتشارلز نعتزم الزواج ويهمني أن يشترك في هذا الاجتماع.

فصاح روجر في حماسة: ولمَ لا؟ لقد قلت لك مراراً وتكراراً يا فيليب إن الأمر لم يعد يتطلب الكتمان، وغداً أو بعد غد سيعلم به الناس جميعاً.

وترك مكانه واقترب مني وقال وهو يضع يده على كتفي: ثم إنك سمعت ما دار بيني وبين أبيك أيها الشاب، ولا بد أنك قد عرفت الآن كل شيء.

ومع ذلك فقد أحسست بأن وجودي غير مرغوب فيه وبأنني يجب أن انسحب، ولكن صوفيا ضغطت على يدي وأصرّت على بقائي. واصلت الأتيسة دي هافيلاند الحديث الذي انقطع بدخولنا فقالت: الرأي عندي أننا يجب أن نحترم إرادة أرسيتيد على إنقاذ الشركة، وفيما يختص بي فإنني أضع كل ما أملك تحت تصرف روجر.

فصاح روجر في غضب: كلا يا خالتي، كلا.

وقال فيليب: وأنا أود أن أفعل المثل، ولكن ثمة اعتبارات...

فقاطعه روجر قائلاً: ألا تريد أن تفهم يا عزيزي فيليب أنني لا أريد ولن أقبل درهماً من أحد؟

- نعم، إنه لن يقبل.

فقلت ماجدا: إنه على كل سوف يحصل على نصيبه في الميراث.

قال أوستاش: سيكون قد فات الأوان لإنقاذ الشركة.

فصاح روجر: قلت إن الشركة لا تهمني، فلندع الأمور تسير في طريقها الطبيعي.

فقال فيليب: وسمعة الأسرة، وكرامة الأب، وكرامتنا؟

- إن الشركة لا تحمل اسم الأسرة، إنها شركتي وتحمل اسمي.

وهنا نهضت إديث دي هافيلاند وقالت بحزم: أظن أن المناقشة طالت أكثر مما ينبغي.

فنهض فيليب وماجدا، وغادر أوستاش القاعة وهو يعرج، وتأبط روجر ساعد فيليب وهو يقول: لا بد أنك جننت يا فيليب حتى تظن أنني سأطلب مساعدتك.

وخرج الأخوان معاً وتبعتهما ماجدا وصوفيا التي قالت إنها ستذهب لتعد لي إحدى الغرف، ونظرت إديث دي هافيلاند نحوي حتى ظننت أنها تريد أن تتحدث إليّ، ولكن يبدو أنها عدلت لأنها انصرفت على الأثر دون أن تنظر يمنة أو يسرة. أما كليمنسي فإنها قد وقفت أمام النافذة وراحت تنظر إلى الحديقة، فاقتربت منها فتحولت إليّ وقالت: حمداً لله، لقد انتهى الاجتماع.

صمتت قليلاً ثم استطردت قائلة: هذا الاجتماع العائلي هو الفصل الثاني من المسرحية، وماجدا هي صاحبة الفكرة، ولكنه

أسفر عن لا شيء لأن الموضوع كان منتهياً تماماً.

كان صوتها ينم عن الارتياح لا الحزن، فدهشت، ولاحظت هي دهشتي فقالت: ألم تفهم؟ لقد ظفرنا أخيراً بحريتنا بعد سنوات طويلة قضاها روجر في بؤس وشقاء. إنه لم يخلق لإدارة الأعمال، فهو يحب الجياد والأشجار والحقول، وكان كسائر أفراد الأسرة يحب أباه حباً جماً، وهذا هو سر شقاء هذا البيت. لم يكن الأب طاغية ولم يكن يفرض إرادته على أحد. كان يحب أولاده ويبدل قصارى جهده ليكفل لهم الغنى والاستقلال، وكان الأولاد يحبونه حباً جنونياً.

- وهل في ذلك خطأ؟

- نعم، إلى حد ما. فعندما يكبر أولادك فإنه يحسن بك أن تتعد عنهم وتختفي من حياتهم وترغمهم على نسيانك. لا تدع ما بينك وبينهم من حب يطغى على شخصيتهم ويحكم تصرفاتهم. كانت الشركة المتحدة للمواد الغذائية موضوع فخر أرسيد ليونيدس، وكانت تمثل بالنسبة إليه قمة النجاح، فتنازل عنها لروجر أكبر أولاده. وحاول روجر أن يكون جديراً بالثقة التي وضعها فيه أبوه، ولكنه كان يشعر بعجزه وقصوره، وذلك ما جلب له التعاسة طوال السنين الماضية. كان يرى الشركة تتدهور عاماً بعد عام فيبدل لها مزيداً من الجهد، فلا تزيدها جهوده إلا تدهوراً. ولما أصبح إفلاساً محققاً تنفس الصعداء وأحس بالارتياح والخلاص، وبدأ يفكر في الحياة الجديدة التي سنحياها.

- وإلى أين كان في نيتكما الرحيل؟

- إلى باربادوس. لقد مات أحد أقاربي هناك وترك لي قطعة من الأرض. صحيح أنها قطعة صغيرة ولكنها أكثر مما سوف نحتاج إليه. سنكد ونكدح ولكننا سنكون سعيدين. وتهدت وأردفت: إن ما يحزن روجر هو اعتقاده بأنني سوف أضيع بالفقر. هذا اعتقاد خاطئ نابع بغير شك من أنه نشأ في أسرة تضع المال في المكان الأول من اهتمامها، أما أنا فقد عشت مع زوجي الأول في فقر مدقع، وقد اعتبر روجر ذلك منتهى الشجاعة من جانبي ولم يدرك أنني كنت سعيدة كل السعادة، بل كنت أكثر سعادة مني الآن رغم أنني لم أحب زوجي الأول قط كما أحببت روجر.

وأغمضت عينيها ثم فتحتهما ونظرت إليّ وقالت: هذا يعني أنني لست المرأة التي ترتكب جريمة قتل من أجل المال لأنني لا أحب المال.

لم يكن يخامرني شك في صدقها. كانت من الأشخاص القلائل في هذه الدنيا الذين لا يحفلون بالمال أو بما يوفره المال لأصحابه من متع وسلطان. فقلت: إنني مقتنع تماماً بأنه لا ضلع لك أو لروجر في الجريمة ولا مصلحة لكما في ارتكابها، ولكنني أعتقد أنك من الذكاء بحيث لا يمكن إلا أن يكون لديك فكرة عن ظروف ارتكابها.

فرمقتني بنظرة طويلة غريبة وقالت بصوت باهت خال من الحماسة: إن التكهن لعبة غير علمية، كل ما أستطيع أن أقوله لك هو أن بريندا ولورانس هما في مقدمة المشتبه فيهم.

- هل ترتابين فيهما؟

فهزت كتفيها. وأرهفت أذنيها لحظة ثم خرجت مسرعة في اللحظة التي دخلت فيها إديث دي هافيلاند وهي تقول: أريد أن أتحدث إليك.

فدونت منها. قالت: أرجو ألا يكون الاجتماع العائلي قد ترك في نفسك انطباعاً سيئاً، أعني فيليب. إنه يبدو جامد العاطفة شديد التحفظ ولكنه في الحقيقة ليس كذلك. كان روجر هو الأخ الأكبر وكان أثيراً عند أبيه بعض الشيء لهذا الاعتبار، وأظن أن فيليب أحس بذلك فانطوى على نفسه في الكتب التي تتحدث عن الماضي وتناهى به عن حاضره وعن حياته اليومية.

وصمتت لحظة ثم قالت: ويخيل إليّ أنه كان دائماً يغار من روجر دون أن يشعر، ولهذا لم يحزن كثيراً لإخفاقه وفشله في إدارة الشركة ولم يسارع إلى نجاته كما كان ينبغي عليه أن يفعل.

* * *

قالت صوفيا: ها هي غرفتك.

كانت غرف فسيحة كسائر غرف البيت، وأثاثها قليل ولكنه ثمين، وليس بها لوحات أو تحف. وقفت أمام النافذة ونظرت إلى الحديقة فبدت لي في الغسق موحشة حزينة وأشجارها التي تجردت من نصف أوراقها تتمايل مع ريح كأنها أشباح تترنح. وفجأة فُتح باب الغرفة ودخلت ماجدا وهي تقول: لماذا لا تضيئان النور أيها العزيزان؟ لقد هبط الظلام.

وأضاءت النور وجلست على أحد المقاعد واستطردت قائلة: هل شهدتنا مسرحيتنا الصغيرة؟ كانت إديث رائعة حين تبرعت بنصيبها في الميراث لإنقاذ الشركة، وكانت مخلصمة أيضاً. كانت حركة غبية أن يتأثر بها فيليب فيفعل المثل. الواقع أن إديث لا تضمن بأية تضحية من أجل الأسرة، وإن حب عانس عجوز لأولاد أختها على هذا النحو لأمر يدعو إلى التأثر. كم أود أن أَلعب يوماً دوراً كهذا، دور خالة عجوز يفيض قلبها حباً وحناناً.

فقلت: لا بد أنها عاشت أياماً تعيسة عقب موت أختها،

خاصة وأنها كانت تكره زوج أختها ولا تطيقه.

- من قال لك هذا الكلام؟ لقد كانت مولعة بوجهه.

فصاحت صوفيا: أماه!

- لا تحاولي معارضي يا صوفيا. أتظنين أن الحب وقف فقط على الشبان الذين يتناجون في ضوء القمر؟

فقلت: ولكن إديث هي التي قالت لي بنفسها إنها كانت تمقته.

- ربما كان ذلك في البداية، ولكنها أحبته فيما بعد ولم ترض عن زواجه الثاني.

فقالت صوفيا: وأنت وأبي لم ترضيا أيضاً عن زواجه الثاني.

- طبعاً. كان زواجاً غير متكافئ، ولكن إديث كانت أشدنا غضباً واستياء. ليتك فقط رأيت نظراتها لبريندا.

- كفى يا أماه!

نظرت ماجدا إلى ابنتها في ضراعة نظرة طفل يرجو الصفح والمغفرة، وقالت دون أن تحفل بأنها قد انتقلت إلى موضوع آخر مختلف تماماً: لقد قررت أن أرسل جوزفين للإقامة في إحدى المدارس، لقد آن لي أن أفعل ذلك.

- جوزفين!

- نعم، سأرسلها إلى سويسرا، وسأشرع غداً في اتخاذ

الإجراءات اللازمة لذلك. لم يعد من مصلحتها أن تبقى هنا حيث لا هم لها إلا التفكير في الجريمة والمجرمين، ثم إنها بحاجة إلى زميلات في مثل سنها. إن المدرسة الداخلية هي أفضل مكان لها، ذلك كان رأيي دائماً.

- ولكنه لم يكن رأي الجد.

- إن العجائز تطغى عليهم الأنانية أحياناً، وقد كان العجوز العزيز يريدنا جميعاً تحت بصره، بينما المكان الطبيعي للطفل هو أن يكون بين أطفال في مثل سنه. ثم إن سويسرا بلاد جميلة ستنعم فيها جوزفين بالهواء النقي ورياضة الشتاء والطعام الجيد، ولن تجد فيها مجالاً للقيام بدور المخبر السري.

رنت هذه العبارة في أذني، ولم أتمالك من أن أسأل نفسي: ألهذا قررت الأم فجأة أن ترسل ابنتها إلى سويسرا؟ إن جوزفين تعرف أشياء كثيرة حدثت قبل الجريمة وبعدها. ترى هل لذلك صلة بقرار إبعادها إلى سويسرا؟

* * *

في صباح اليوم التالي تناولت طعام الإفطار وصعدت إلى الطابق الأول، حيث توجد قاعة الدراسة التي يلتقي فيها أوستاش وأخته بأستاذهما لورانس براون كل يوم. كان الدهليز الذي سرت فيه خالياً تماماً ولم أسمع فيه حركة أو صوتاً، ووجدت نفسي أمام قاعة الحمام التي قضى فيها رجال الشرطة وقتاً طويلاً للبحث عن آثار ترشدهم إلى اليد التي سكبت مادة الإيزيرين في قنينة الأنسولين. ولم أقوَ على مقاومة الفضول الذي استولى عليّ فدلقت إلى الحمام، وراعني ما رأيت فيه. كان حافلاً بأحدث ما تفتق عنه الذهن البشري من وسائل الترف، وكان كل ما يعينني فيه هو صندوق الأدوية وبينها عدد كبير من قناني الأنسولين بعضها مليء وبعضها فارغ، ومحتوياته مرتبة ومنظمة بحيث يسهل تناول أي دواء للعلاج أو القتل. لم يرني أحد حين دخلت الحمام، وكان بوسعي أن أسكب محتويات أية قنينة أخرى وأنصرف دون أن يشعر بي أحد. لم أقف من هذه الزيارة على جديد ولكنها أقنعتني بصعوبة مهمة رجال الشرطة في إمطة اللثام عن قاتل أرسيد ليونيدس.

ثم واصلت السير في الدهليز المقفر حتى انتهيت إلى

باب غرفة الدرس كما وصفتها لي صوفيا. وترثت أمام الباب وأرهفت أذني فسمعت صوت لورانس وهو يلقي على تلميذه درساً في التاريخ، واكتشفت بعد بضع دقائق أنه مدرس ممتاز. ولم أدهش لذلك، فقد كان أرسيد ليونيدس رجلاً حصيفاً يعرف كيف يختار الرجال. كان لورانس من أولئك الأساتذة الذين يعرفون كيف ينشطون خيال تلاميذهم ويشيرون اهتمامهم، فبعد أن فرغ من حديثه عن إحدى حقبات الثورة الفرنسية وأبطالها شرع في إلقاء الأسئلة على تلميذه، فكانت إجابات جوزفين مضطربة معقدة على عكس أخيها أوستاش الذي كان يجيب بوعي وذكاء. ثم سمعت صوت حركة مقاعد داخل القاعة فهممت بالابتعاد، ولكن الباب فُتح بسرعة وخرجت جوزفين وتبعها أوستاش، فحيتني الأولى ومضت مسرعة بينما توقف أوستاش وبدا كأنه دهش لوجودي في ذلك المكان وسألني بأدب عما إذا كنت أريد شيئاً، فأحبت به بعض الارتباك بأنني كنت أود أن أتفقد قاعة الدراسة.

قال: ظننت أنك تعرفها. إنها غرفة عادية ليس فيها ما يثير الاهتمام، وقد كنت أَلعب فيها وأنا طفل وما زال بها بعض اللعب. وفتح الباب فرأيت لورانس واقفاً أمام المنضدة، فما أن أبصرني حتى احمرَّ وجهه وقال كلمة على سبيل التحية وغادر الغرفة مسرعاً. فقال أوستاش وهو يبتسم: لقد أخفته، إن أبسط شيء يزعجه ولكنه أستاذ ممتاز.

- لا أستطيع أن أقول العكس. هل تتلقى نفس الدروس مثل جوزفين؟

- كلا طبعاً، إنها لا تتعلم اللغة اللاتينية ولا الحساب.

- ولكن يخيل إليّ أنها أذكى من سنّها.

- أتظن ذلك؟ إنني أرى العكس، إنها غبية وقد استحوذت روايات التحري على عقلها، فهي تقف تنتصت على الأبواب وتكتب ملاحظات في دفتر أسود صغير وتزعم أنها اكتشفت أشياء كثيرة، ولكنها مدّعية حمقاء. وقد قلت إن أمي ستحسن صنعاً حيث ترسلها إلى سويسرا.

- هل كنت تحب جدك يا أوستاش؟

- كان رجلاً أنانياً وغير اجتماعي، وقد قال لورانس إن أمثاله يجب أن يخنقوا.
- وهذا ما فعله.

- وخير ما فعل. أية متعة في الحياة يجدها من كان في مثل سنه؟

وفي هذه اللحظة عاد لورانس وراح يرتب بعض الكتب على المنضدة، ولاحظت أنه ينظر نحوي خلسة من ركن عينه، وأخيراً نظر إلى ساعته وقال: أوستاش، هل لك أن تعود في الساعة الحادية عشرة تماماً؟

- حسناً يا سيدي.

وانصرف الصبي وهو يصفر بشفتيه، واستمر لورانس في ترتيب الكتب وهو يبذل شفثيه بلسانه بين الفينة والفينة. ولم يكن لديّ شك في أنه إنما عاد خصيصاً للتحدث إليّ، ويبدو أنه قرر أن يتكلم. قال: إلى أين وصلوا؟

- من؟
- رجال الشرطة.
- الحق أنهم لا يطلعونني على نتائج تحرياتهم.
- كنت أظن أن أباك من كبار رجال الشرطة.
- هذا صحيح، ولكنه لا يكشف لي ما ينبغي كتمانها من أسرارها.

- إذن أنت لا تعلم ما إذا...

- ولم يوفق إلى الكلمة المناسبة، فقال بعد تردد قصير:
هل قررروا القبض على أحد؟
- لا أعلم بالتحديد.

- أنت لا تستطيع أن تفهم معنى القلق وتوتر الأعصاب، فهم يجيئون ويذهبون ويلقون أسئلة لا صلة لها بالموضوع.

وصمت مرة أخرى وطال صمته، إلى أن قال: لقد كنت موجوداً يوم أدلى المفتش بتلك الملاحظة الفظيعة عني وعن السيدة ليونيدس، أليس كذلك؟ ماذا كان بوسعي أن أقول؟ وكيف السبيل إلى انتزاع الأفكار القذرة من أذهان الناس؟ ماذا كان في استطاعتي أن أفعل لأثبت خطأهم؟ كل ذلك لأنها كانت أصغر سناً من زوجها! قلبي يحدثني بأن في الأمر مؤامرة.

- مؤامرة؟ هذا شيء جديد أسمعه لأول مرة.

- إنني لم أظفر أبداً بعطف آل ليونيدس. كانوا دائماً ينظرون إليّ من أعلى وكنت أشعر بأنهم يحتقرونني، لا شيء

إلا لأنهم أغنياء، وأنا لا شيء... مجرد مدرس حقير. لقد دبر ليونيدس الأمر بحيث تقع الشبهة عليّ. لقد أراد تدميري.

وهز كتفيه وعاد إلى كتبه يرتبها بأصابع مرتجفة، ورأيت من الأفضل أن أنسحب فغادرت الغرفة وسرت في الدهليز الذي سلكته عند قدومي، وفجأة فُتح باب إلى يساري ورأيت جوزفين تظهر أمامي بغتة. سألتها: من أين جئت؟

فنظرت من خلال الباب الذي قدمت منه وأومأت إلى غرفة كان بها فيما مضى خزان الماء. قالت: كنت في غرفة الخزان.

- وماذا تفعلين هناك؟

- كنت أقوم ببعض التحريات.

ونظرت إلى يديها وقالت: يجب أن أغسل يدي. ثم مضت إلى حمام قريب، وما أن وصلت إلى بابه حتى استدارت وقالت تحدثني: يخيل إليّ أن جريمة القتل التالية لن تتأخر طويلاً.

- أي جريمة ثانية؟

- في كل قصة بوليسية توجد دائماً جريمة ثانية، ويكون الضحية شخصاً يتعين إسكاته لأنه يعرف أشياء لا يجب أن تقال.

- إنك تسرفين في قراءة القصص البوليسية يا جوزفين ولكن الحياة شيء آخر يختلف تماماً عما في القصص، وإذا كان في هذا البيت من يعرف أسراراً فإنه لن يبوح بها.

فقلت وهي تهتم بدخول الحمام: يحدث أحياناً أن يكون الشخص المطلوب إسكاته لا يعلم بأنه يعرف أسراراً تهتم الآخرين.

* * *

كنت أفكر فيما قالته هذه الصغيرة الخبيثة وإذا بيريندا تخرج من قاعة الاستقبال وتقبل نحوي. قالت وهي تضع يدها على كتفي وتنظر في عيني: هل من جديد؟

كان نفس السؤال الذي ألقاه عليّ لورانس من قبل ولكن بأسلوب آخر، وهزرت رأسي سلباً فتنهدت وقالت: ماذا سيحدث في التحقيق الذي سيجري غداً؟

- لا شيء، فاطمئني. ستطلب الشرطة إرجاء التحقيق حتى تتهيأ لها أدلة جديدة، ولكنني أتوقع أن تتحرك الصحف. لقد اقتصررت حتى الآن على نشر نبأ الوفاة، ولكن إرجاء التحقيق سيطلق الصحفيين في أعقاب أفراد الأسرة.

- هذا مخيف.

- لو كنت مكانك يا بيريندا لامتنتعت عن مقابلة الصحفيين أو التحدث إليهم، لقد آن لك أن تجدي من ينصحك ويرشدك إلى ما يجب عمله. إنك بحاجة إلى رجل قانون يدلك على الإجراءات ويرشدك إلى ما يجب أن تقوله أو تفعله. إنك تقفين وحدك يا بيريندا، فهل تعلمين ذلك؟

فضغطت على كتفي وقالت: نعم يا تشارلز، إنني أعلم، شكراً لك.

وهبطت الدرج وأنا أشعر بالرضا عن نفسي، ورأيت
صوفيا تقف بالباب فقالت حالما رأته: لقد تحدثوا تليفونياً
من لندن يا تشارلز، إن أباك يرغب في مقابلتك.

- في اسكتلنديارد؟

- نعم.

- ترى ماذا يريد مني؟

* * *

كان أبي يجلس أمام مكتبه وتافرnr يطل من النافذة وجيتسكيل يذرع أرض الغرفة جيئة وذهاباً، وكان الجو مفعماً بالتوتر.

قال المحامي: من كان يتصور أنه لا يثق بي إلى هذا الحد؟

وقال أبي حالما رأني: أهذا أنت يا تشارلز؟ إن لدينا أبناء جديدة.

نظرت إلى تافرnr ورأيته يتسم. وقال أبي: سأوضح لك الموقف بإيجاز. لقد تلقى السيد جيتسكيل صباح اليوم رسالة غريبة من رجل يدعى أجروبولو، وهو صاحب مطعم معروف باسم مطعم الفوس، والسيد أجروبولو يوناني الأصل كما يدل على ذلك اسمه ويبدو أن أرسيد ليونيدس قد أسدى معروفاً عظيماً في وقت ما جعله يشعر بأنه مدين له مدى الحياة. وكان ليونيدس من ناحيته يثق فيه ثقة عظيمة، وقد قال أجروبولو في رسالته إن ليونيدس أودع لديه منذ نحو عام مظروفاً مغلقاً وطلب إليه أن يرسله إلى السيد جيتسكيل عقب وفاته، وفي حالة وفاة

أجروبولو أولاً يقوم ابنه بهذه المهمة. واستطرد أجروبولو في رسالته قائلاً إنه كان مريضاً بالتهاب رئوي فلم يعلم بوفاة أرسطيد ليونيدس إلا منذ يومين. لذلك فإنه بادر إلى إرسال المظروف المختوم إلى السيد جيتسكيل، وقد قرأ السيد جيتسكيل رسالة أجروبولو وفض الغلاف المرفق بها، وما كاد يرى محتويات الغلاف المختوم (وهي عبارة عن رسالة من ليونيدس مرفقاً بها وصيته، وهي وصية قانونية تحمل توقيع ليونيدس واثنين من الشهود) حتى وجد من واجبه أن يتصل بنا.

هنا صاح جيتسكيل: إنها غير الوصية التي كتبتها نزولاً على رغبة ليونيدس نفسه، وقد كتبتها بخط يده ووضعها في الغلاف وختمه، وذلك أسوأ ما يفعله رجل أعمال.

فقال تافرر ليرفه عنه: لا تنس يا سيد جيتسكيل أن الرجل كان قد بلغ من السن عتياً وساء تقديره للأمر.

استطرد أبي قائلاً: وقد اتصل بنا السيد جيتسكيل وأنبأنا بمضمون الوصية فطلبت إليه الحضور لمقابلتنا.

فسألت: وهل هناك خلاف بين الوصيتين؟

فقال جيتسكيل: اختلاف كبير... وصمت لحظة ثم قال: أعتقد أنك على صلة وثيقة بالآنسة صوفيا؟

- إنني أرجو الاقتران بها، ولكنها تأبى الحديث في موضوع الزواج في الوقت الحاضر.

- إذن فاعلم أن السيد ليونيدس قد أوصى لزوجته في الوصية بمبلغ مئة وخمسين ألف جنيه، وأوصى بباقي ثروته

لحفيدته صوفيا ليونيدس.

ألجمتني الدهشة وهتفت أخيراً: أوصى لصوفيا؟ هذا عجيب! وهل أوضح أسباب هذا القرار؟

- قال في رسالته التي أرفقها بالوصية إن صوفيا هي أقدر ذريته على تحمل مسؤوليات الأسرة التي كانت طوال حياتها بحاجة إلى شخصية قوية تسهر عليها وترعى مصالحها، وتناول بالتحليل شخصيات الآخرين فقال إن روجر شديد الاندفاع ولا يمكن الركون إليه في الحكم على الأمور، وإن فيليب يفتقر إلى الثقة بالنفس، بينما أوستاش لا يزال حدثاً ومن السهل التأثير عليه. أما صوفيا فإنها ذكية ورزينة وشجاعة ولها كل الصفات التي تكفل إسعاد الأسرة وإسعاد إديث دي هافيلاند التي لا يسعه إلا أن يذكر بالشكر وعرفان الجميل ما أبدته طوال حياتها من إخلاص لأفراد الأسرة.

فقلت بإعجاب: حقاً لقد كان بعيد النظر صادق الفراسة.

فقال جيتسكيل: إنني أقر كل كلمة جاءت في رسالته، ولكن أعيب عليه فقط عدم ثقته بي بعد خدمة ثلاثة وأربعين عاماً.

فقال أبي: هذا صحيح، ولكن يبدو أنه كان رجلاً معقداً يطيّب له حسم الأمور بطريقة غير مألوفة.

وفي تلك اللحظة دق جرس التليفون، فتناول أبي السماعة وأصغى ثم قال: هذه مكالمة لك يا تشارلز... من صديقتك.

فتناولت السماعه وهتفت: صوفيا؟

- أهذا أنت يا تشارلز؟ إنني أحدثك الآن بشأن جوزفين...

كان صوتها متهدجاً، فصحت: ماذا بها؟

- لقد أصيبت بضربة في رأسها ربما تقضي عليها.

* * *

بعد بضع دقائق كنت والمفتش تافرير في سيارة تنهب بنا الأرض في الطريق إلى ضاحية سوينلي دين. تذكرت وأنا أستعرض أحداث الأيام الأخيرة ما قالته جوزفين وهي تغادر قاعة خزان الماء عن الجريمة الثانية المرتقبة. لا شك أن الطفلة المسكينة لم تتوقع أن تكون هي ضحية تلك الجريمة الثانية! كانت صوفيا تنتظرنا بباب البيت، وقالت لنا إن جوزفين قد نقلت بسيارة الإسعاف إلى المستشفى وإن الدكتور جراي سيفحصها بالأشعة ويخطرهم بنتيجة الفحص. فسألها تافرير: ولكن كيف حدث ذلك؟

فاقتادتنا إلى غرفة مهجورة خلف البيت وقالت: هذه الغرفة تستخدم كمخزن للأدوات المهملة كالخراطيم والفؤوس وغيرها مما يستعمل في الحديقة، وقد اعتادت جوزفين التردد عليها بين وقت وآخر لتتأرجح على بابها الخشبي. كانت غرفة صغيرة مظلمة مليئة بالمقاعد الخشبية والخراطيم المستهلكة وقطع الأثاث التالفة. وأشارت صوفيا إلى تمثال صغير من الرخام ملقى على الأرض بجوار الباب وقالت: لا بد أن بعضهم قد وضع التمثال على الحافة العليا للباب، فلما أرادت جوزفين

التأرجح على الباب كالعادة سقط التمثال على رأسها.

فقال تافرير: إنها حيلة في منتهى البساطة. وحرك الباب بيده ثم نظر إلى التمثال وسأل: هل لمسه أحد؟

فأجابت صوفيا: كلا، لم أسمح لأحد بأن يلمسه.

- أحسنت صنعاً، ومن الذي عثر على الفتاة؟

- أنا، لقد انتظرناها ساعة الغداء فلم تحضر، فشرعنا في البحث عنها. وتذكرت ناني أنها رأتها تخرج إلى الحديقة وتسير في هذا الاتجاه، فقالت لي إنها تراهن على أنها قد ذهبت لتأرجح على الباب. وخيل إليّ أنها على صواب فجئت إلى هنا للبحث عنها.

- هل اعتادت التأرجح على هذا الباب؟

- نعم، وأعتقد أن الجميع يعلمون ذلك.

- ألا يستطيع من في البيت أن يرى ما يحدث هنا؟

- كلا.

- إذن فقد كان من السهل على أي إنسان أن يتسلل إلى هذه الغرفة ويضع هذا الفخ. ولكن نجاح تدبيره لم يكن مؤكداً. قال ذلك وحرك الباب برفق واستطرد قائلاً: كانت مسألة حظ. كان من الممكن جداً أن يسقط التمثال فلا يصيبها، بل إن احتمالات الفشل تفوق كثيراً احتمالات النجاح. كل ما هنالك أن جوزفين كانت سيئة الطالع فسقط التمثال على رأسها.

وانحنى ونظر إلى عدة حفر على الأرض وقال: يبدو أن

الفاعل قد قام بعدة تجارب قبل أن يتمكن من موازنة التمثال فوق الحافة العليا للباب. ألم تسمعوا شيئاً وأنتم بالبيت؟

فأجابت صوفيا: كلا، وأنا شخصياً لم أشك في الأمر إلى أن رأيتها ممددة على الأرض والدم يسيل من جرح عميق في رأسها.

فأشار تافرر إلى شملة من الصوف صارخة الألوان ملقاة على الأرض وسأل: أهذه شملتتها؟

- نعم.

فتناول تافرر الشملة وأمسك بها التمثال وهو يقول: قد تكون عليه بصمات أصابع، ولكنني أشك في ذلك... ماذا تفعل يا تشارلز؟

كنت أنظر إلى مقعد خشبي رأيت على قاعدته بعض قطع من الطين، فقال تافرر: هذا عجيب! يبدو أن بعضهم قد وقف فوق المقعد وحذاؤه ملوث بالوحل، ترى لماذا؟ ثم التفت إلى صوفيا وسأل: متى عُثر على جوزفين في هذا المكان؟

- حوالي الساعة الواحدة وخمس دقائق.

- وكم كانت الساعة حين رأتها ناني تخرج إلى الحديقة؟

- قبل ذلك بنحو عشرين دقيقة.

- إذن فالحدث وقع خلال فترة محدودة لا تتجاوز ٢٥

دقيقة.

* * *

وعدنا إلى البيت ورافقت صوفيا إلى قاعة المكتبة، وهناك كان فيليب في مقعده المألوف وهو شاحب الوجه شارد الذهن، بينما جلست ماجدا على الأرض وأسندت رأسها إلى ركبة زوجها وراحت تذرف الدموع في هدوء. سألت صوفيا أباها عما إذا كان المستشفى قد اتصل تليفونياً فهز فيليب رأسه سلباً، وقالت ماجدا: لماذا لم تدعوني أذهب مع ابنتي الصغيرة المسكينة؟ أنا أعلم أنها ستموت.

فتوسل إليها فيليب أن تصمت، ورأيت من اللباقة أن أنسحب فخرجت في هدوء وانطلقت للبحث عن ناني، ووجدتها في المطبخ تبكي. قالت: إن الأرواح الشريرة تملأ هذا البيت يا سيد تشارلز، لقد قتل السيد العجوز أولاً وها هي الصغيرة المسكينة على شفا الموت.

وخطر لي خاطر فسألتها: هل تعلمين أين كانت تخفي الدفتر الأسود الصغير الذي كانت تسجل فيه خواطرها وأفكارها؟

- كلا يا سيدي، ولكني أعلم أنها كانت تحرص عليه وتحيطه بسرية تامة.

- هل كان معها عندما عثرتم عليها بعد الحادث؟

- كلا يا سيدي.

ترى هل أخذ أحدهم هذا الدفتر أم أنه لا يزال مخبأ في غرفتها؟ خطر لي أن أبحث عنه ولكني لم أكن أعرف موقع غرفة جوزفين، ووقفت في الدهليز حائراً وإذا بي أسمع صوت

تافرnr وهو يقول: تعال يا تشارلز، إنني في غرفة جوزفين.

فذهبت إلى مصدر الصوت وجمدت في مكاني على عتبة الباب. كانت الغرفة كأنها قد مر بها إعصار. كل شيء فيها نزع من مكانه، حشية الفراش مزقت إرباً، الأدراج خلعت من الخزائن وبعثرت محتوياتها، اللوحات ألقيت على الأرض وحطمت إطاراتها والمقاعد المقلوبة والكتب والأوراق مبعثرة... لم أصدق ما رأيته عيناى وهتفت: يا إلهي! ما معنى هذا؟

- ما رأيك؟

- رأيي أن أحدهم كان يبحث هنا عن شيء.

- ذلك ما أعتقد.

- ولكن لا يمكن أن يدخل إنسان ويفعل كل هذا دون أن يراه أو يسمعه أحد.

- ليتني أعلم عن أي شيء كان يبحث، وهل وجد ما كان يبحث عنه أم لا؟

ونشطت هذه الكلمات ذاكرتي، وتبلورت أفكارى بغتة عندما سألني تافرnr متى رأيت جوزفين لآخر مرة. فغادرت المكان مسرعاً وهرولت إلى غرفة خزان الماء، وكان سقف الغرفة منخفضاً فاضطرت أن أحني قامتي. لقد رأيت جوزفين لآخر مرة وهي تخرج من هذه الغرفة، وعندما سألتها ماذا كانت تفعل أجابت بأنها كانت تقوم ببعض أعمال التحريات. فماذا كانت ترجو أن تجد في هذه الغرفة التي يخيم عليها

نسيج العنكبوت؟ أكبر الظن أنها لم تكن تبحث في الغرفة عن شيء وإنما كانت تخفي بها شيئاً.

وبحثت في الغرفة، ولم تستغرق عملية البحث أكثر من ثلاث دقائق. دسست يدي وراء خزان الماء فوجدت حزمة صغيرة ملفوفة في قطعة من الورق الأسمر. كانت حزمة رسائل، فتناولت أولى هذه الرسائل وقرأت فيها ما يلي:

أنت لا تعلم أيها العزيز لورانس، كم كانت سعادتني أمس وأنا أسمع الأشعار التي تلوتها علينا. كنت تتجنب النظر إليّ ولكنني أعلم أنك توجه الكلام إليّ، وإليّ وحدي. قال لك أرسيتيد: أنت قارئ ممتاز، ولكنه لم يلاحظ الانفعالات التي تجيش في صدرك وصدري. أنا واثقة أيها الحبيب أن كل شيء سينتهي قريباً على ما نروم، وإنني لأشعر بالارتياح كلما فكرت في أنه سيموت دون أن يعرف ما بيننا وسيموت سعيداً. لقد كان كريماً معي ولذلك لا أريد له أن يتألم. إنني أعتقد أن الإنسان لن يجد متعة في الحياة بعد أن يتجاوز الثمانين، ولذلك أرجو ألا يطول انتظارنا وأن يجمع الحب بيننا عما قريب. كم سأكون سعيدة حين أدعوك: يا زوجي العزيز! لقد خلقت كل منا للآخر أيها الحبيب. وأنا أحبك، أحبك، أحبك.

كانت للرسالة بقية ولكنني شعرت بالاشمئزاز والاستنكار فلم أمض في قراءتها. عدت إلى تافرنر وقدمت إليه حزمة الرسائل وأنا أقول: لعل هذه هي ما كانوا يبحثون عنه.

وقرأ تافرير بضع فقرات من الرسالة الأولى، ثم نظر إليّ وهو يبتسم وقال: أظن أن هذه الرسالة تحسم الأمر بالنسبة إلى بريندا ولورانس.

إنني لأدهش الآن كلما تذكرت كيف تقلص عطفي نحو بريندا حالما قرأت رسائلها للورانس. فهل كان ذلك لأنها كذبت عليّ أم لأنها أثبتت أنني إنسان يسهل خداعه؟ لا أعلم. إنني لا أفهم كثيراً في علم النفس، شيء واحد لا أعرفه لبريندا هو أنها في محاولتها التخلص من تبعات جريمتها الأولى قد أقدمت بنذالة على الفتك بطفلة صغيرة لا حول لها ولا قوة.

قال تافرير: الرأي عندي أن لورانس هو الذي أقدم على هذه الفعلة، وذلك يفسر أمراً أثار حيرتي.

- ما هو؟

- دعنا نستعرض الحقائق بطريقة منطقية. كانت الرسائل في حوزة جوزيفين، وكانت الخطوة الصحيحة هي محاولة استردادها، فإذا نجحت المحاولة انتهى كل شيء، إذ مهما تكلمت الفتاة بعد ذلك فإن أحداً لن يصدقها لأنها لا تملك ما يثبت كلامها، وسوف يقال حينئذٍ إنها اخترعت القصة كلها. ولكنهم لم يجدوا الرسائل فأصبح من الضروري التخلص من الفتاة لمنعها من الكلام. كان معروفاً أن الفتاة تحب التأرجح على باب الغرفة المهجورة. إذن، فالطريقة المثلى للتخلص منها هي انتظارها في الغرفة المهجورة وضربها بقطعة من الحجر والحديد وبذلك ينتهي الأمر. لكن الجاني لم يفعل ذلك وإنما لجأ إلى طريقة غير مؤكدة النتائج، فكلّف نفسه

مؤونة موازنة الحجر فوق الباب ليسقط على الفتاة فيصيبها أو
لا يصيبها، فلماذا؟

- والجواب؟

- الجواب يتوقف على شخصية الجاني، ونحن نعلم
أن لورانس براون يفزع من أعمال العنف والقسوة، فمن
المستحيل عليه أن يتوارى خلف الباب ليهشم رأس فتاة صغيرة
ولكنه يستطيع موازنة الحجر على الباب ليؤدي الحجر مهمته
بينما هو بعيد عن مكان الحادث.

- فهمت، على غرار عملية استبدال الأنسولين
بالإيزيرين.

- تماماً.

- هل تعتقد أن بريندا كانت على علم بهذا التدبير؟

- من المحتمل جداً أن يكونا قد اشتركا معاً في التخطيط،
ومن المحتمل أيضاً أن تكون هي وحدها التي فتكت بزوجها.
فالسّم هو الوسيلة التقليدية للتخلص من الأزواج العجائز،
ولكنني أراهن على أنها لم تنصب ذلك الفخ لجوزفين، فالنساء
لا يحفلن بالوسائل الميكانيكية أو الآلية التي من هذا النوع.

- مهما يكن من أمر فإن الرسائل فيها الكفاية لإدانة
العاشقين، ولا يبقى بعد ذلك إلا أن تتماثل جوزفين للشفاء
لكي تعود الطمأنينة والسعادة إلى هذا البيت. ثم غمز بعينه
واستطرد قائلاً: أظن أنه من المثير أن يكون الإنسان خطيباً لفتاة
تملك بضعة ملايين من الجنيهات.

كنت في غمرة الأحداث قد نسيت كل شيء عن الوصية
فقلت: إن صوفيا لم تعلم بعد بمضمون الوصية، فهل أخبرها؟
- أعتقد أن جيتسكيل سيجتمع بالأسرة غداً ليتلو عليها
نص الوصية.

* * *

في مساء ذلك اليوم تلقت صوفيا من المستشفى نبأ ساراً،
إن إصابة جوزفين ليست من الخطورة كما ظن الجميع وعمما
قريب تتماثل للشفاء، ولكن زيارتها ممنوعة على الجميع حتى
أمها.

قالت صوفيا وهي تنهي إليّ هذا النبأ: خاصة أمها... ذلك
ما أكدته في حديثي مع الدكتور جراي.

ويبدو أنها قد رأت نظرة استنكار ارتسمت في عينيّ لأنها
قالت: لماذا الاستياء يا عزيزي؟

- يا إلهي! إنها أم.

- يسرني أن ترى في الأمهات الرأي الذي كان شائعاً
فيما مضى، ولكنك لا تعرف أمي يا تشارلز. إنها لطيفة جداً،
ولكنها لا تذهب لزيارة جوزفين إلا لكي تلعب دوراً درامياً
أمام فراشها، وليست هذه هي الطريقة المثلى للتعجيل باندمال
الجرح.

- أنت تفكرين في كل شيء أيتها العزيزة.

- وماذا أستطيع أن أفعل غير ذلك؟ لا بد من شخص

يرعى هذا البيت وأهله بعد رحيل جدي.

فلم أجب ، ولكنني لم أتمالك من الإحساس بالإعجاب
بحكمة العجوز وصدق فراسته. إنه لم يخطئ حين وقع اختياره
على صوفيا لتحمل المسؤولية عنه من بعده.

* * *

كانت صوفيا مع بريندا في الحديقة ذات صباح. وكانت بريندا قد انضمت إلينا قبل بضع دقائق وهي تقول: إنني سأجن إذا لم أخرج في الهواء الطلق، ولكني كلما تجاوزت سور الحديقة حاصرني الصحفيون وسدوا عليّ الطريق.

أجابتها صوفيا بأن الصحفيين سوف يتبعون من التربص بأفراد الأسرة وينصرفون. فقالت بريندا فجأة وبلا مقدمات: حديثي يا صوفيا، هل أنهيت عمل لورانس؟ لماذا؟

- لسبب بسيط، هو أننا سنرسل جوزفين إلى سويسرا وسنلحق أوستاش بإحدى مدارس لندن.

- إن لورانس حزين ويعتقد أنك لا تثقين به.

وفي هذه اللحظة وقفت سيارة الشرطة بالباب وهبط منها تافرير وزميله فهتفت بريندا في فزع: لماذا عادا؟ ماذا يريدان؟

ولاحظت أنها ترتجف. لم أكن قد ذكرت شيئاً لصوفيا عن الرسائل التي وجدتها خلف خزان الماء ولكني كنت أعلم أنها أرسلت إلى النائب العام. واقترب تافرير منا ووقف أمام بريندا وقال: إنني أحمل أمراً بالقبض عليك يا سيدتي. أنت

متهمة بأنك في يوم ١٩ سبتمبر الماضي قتلت زوجك أرسيد ليونيدس بمادة الإيزيرين السامة، ومن واجبي أن أحذرك بأن كل ما ستقولينه سيسجل عليك وستحاسبين عليه عند محاكمتك.

انهارت بريندا على الفور وتعلقت بساعدي وقالت وهي تبكي إنها بريئة وإنها ضحية مؤامرة، وتوسلت إليّ ألا أدع تافرnr يقبض عليها وصرخت: أنا لم أفعل شيئاً، لم أفعل شيئاً على الإطلاق.

كان الموقف رهيباً فحاولت أن أهدئ من روعها، وقلت لها إنني سأتفق مع محام للدفاع عنها وإنها يجب أن تمتلك نفسها وتتسلح بالهدوء ورباطة الجأش. وتأبط تافرnr ساعدها وقال: هلمي بنا يا سيدتي.

فنظرتُ إليه وسألت: ولورانس؟

- السيد لورانس؟ معي أمر باعتقاله أيضاً.

فكفت عن المقاومة وسارت مع تافرnr ودموعها تنساب على خديها في هدوء. وفي نفس اللحظة رأيت لورانس براون يخرج من البيت برفقة لام، واستقل الجميع السيارة التي انطلقت بهم مسرعة في الطريق إلى لندن.

* * *

تنفست الصعداء ونظرت إلى صوفيا. كانت ترتجف ووجها شديد الشحوب، وقالت: هذا مخيف! يجب أن نجد لها أفضل المحامين، ولكن لماذا اعتقلوها الآن؟ ظننت أنه

لا توجد أدلة.

- لقد وجدوا بعض الرسائل.

- رسائل غرامية تبودلت بينهما؟

- نعم.

فقالت مرة أخرى: هذا مخيف!

- نعم، كل هذا مخيف، ولكن لا ضرورة للتعقيب عليه.

- ألم تنته الأمور على النحو الذي تمنيناه؟ لقد ظهرت الآن براءة آل ليونيدس وثبت أن أحداً منهم لم يكن لديه دافع لارتكاب الجريمة. لن ندعها تغيب عن أنظارنا بعد الآن رغم أن ذلك لم يعد ضرورياً.

- هذا صحيح، ولكنك لم يكن لديك علم بمضمون الوصية.

- بل كنت أعلم.

- أحقاً؟

وشعرت بالدم يجمد في عروقي. قالت: كنت أعلم منذ وقت طويل أن جدي أوصى لي بكل ثروته.

- ولكن كيف علمت؟

- هو نفسه صارحني بذلك قبل أسبوعين من وفاته. قال لي ذات يوم وبغير مقدمات: صوفيا، أنت التي سترثين كل

ثروتى وأنت التى ستعنين بأمر الأسرة بعد رحيلى.

- ولكنك لم تنبئني بذلك.

- ذلك لأنني سمعتهم يتحدثون عن وصية أخرى قيل أن جدي وقع عليها بإمضائه على مرأى منهم، فظننت أنه قد عدل عن فكرته وخشيت أن أثير الموضوع.

- لماذا؟

- خفت أن أتهم بارتكاب الجريمة!

* * *

وقفت السيارة بالباب فهتفت في سرور: ها هي جوزفين
قد عادت إلينا.

كانت الطفلة تبدو طبيعية تماماً فيما عدا أنها كانت
معصوبة الرأس. قالت على الفور: أريد أن أرى الأسماك
الحمراء. وهرولت إلى حوض الأسماك فصاحت بها أمها:
أليس من الأفضل أن تستريحي في فراشك قليلاً أيتها العزيزة
وأن تتناولي بعد ذلك صحناً من الحساء لترد إليك صحتك؟

فأجابت الطفلة: لا تقلقي يا أماه فإنني بخير، ثم إنني لا
أحب الحساء.

كنت أعلم أنه كان من الممكن أن تغادر جوزفين
المستشفى قبل بضعة أيام، ولكن المفتش تافرير أوصى ببقائها
هذه الأيام حرصاً على سلامتها وحتى لا تعود إلى البيت قبل
اعتقال المتهمين وزوال كل خطر محتمل.

قلت لماجدا: إن الهواء الطلق لن يضرها، سألحق بها
وأسهر عليها.

ولحقت بجوزفين عند حوض الأسماك وبدأت أحدثها:

لقد حدثت أشياء كثيرة في غيابك.

فنظرت إليّ من ركن عينها ولم تجب، وراحت تتابع حركة الأسماك في الماء. قلت لها: ألا يهملك أن تعرفي ما حدث هنا أثناء غيابك يا جوزفين؟

- أظن أنني أعرف.

- هل تعلمين أنهم وجدوا وصية أخرى لجدك أوصى فيها بكل ثروته لصوفيا؟

فهزت كتفيها وقالت: أنبأتني أمي بأمر هذه الوصية ولكنني كنت أعلم.

- هل حدثوك عنها في المستشفى؟

- كلا، كنت أعلم أن جدي ترك كل ثروته لصوفيا، فقد قال لها ذلك بنفسه.

فأدركت أنها سمعت ذلك بطريقتها المألوفة مما دار من حديث بين صوفيا وجدها بشأن الوصية، وانتقلت إلى موضوع آخر فقلت: ليتك عجلت بالحضور لرأيت كيف ألقى المفتش تافرير القبض على بريندا ولورانس.

كنت أعتقد أن هذا النبأ سيثيرها، ولكنها قالت ببساطة: لقد رأيت.

- مستحيل! فقد حدث ذلك قبل حضورك.

- لقد مررنا بسيارتهم ونحن في الطريق إلى هنا. كان بالسيارة عدا بريندا ولورانس كل من المفتش تافرير وضابط

الشرطة ذو الحذاء اللامع ، فأدركت أنهما قد اعتُقلا.

فقلت معترداً: لقد قدمت الرسائل لتافرر بعد أن عثرت عليها مخبأة وراء خزان الماء. كنت أؤثر أن تقديمها أنت إليه ولكنك كنت في المستشفى.

- الواقع أن غرفة الخزان لم تكن المكان الملائم لإخفاء الرسائل ، وقد حدث ذات يوم أنني رأيت لورانس خارجاً من هذه الغرفة فأدركت أنه أخفى بها شيئاً ، وتحقق ظني حين دخلت الغرفة ووجدت الرسائل.

- ولكنني رأيت أنك أنت التي...

ولم أتم عبارتي، فقد سمعت إديث هافيلاند تدعو جوزفين، وتنهدت هذه وقالت: يجب أن أذهب فلا أحد يستطيع الإفلات من الخالة إديث. وأسرعت تعدو في الحديقة إلى حيث كانت إديث، فتبادلت معها بضع كلمات ثم توارت داخل البيت.

وذهبت بدوري إلى إديث. كانت تبدو عليها دلائل التعب والإعياء وخيل إليّ أن تجعدات وجهها قد زادت عمقاً ووضوحاً، وعندما اقتربت منها حاولت أن تبتمس وقالت: هذه الصغيرة لا يبدو عليها أنها عانت كثيراً مما أصابها. ثم تنهدت وقالت: كم أنا سعيدة لأن كل شيء قد انتهى. لقد رأيتهما من نافذتي وشعرت بالرتاء لهما. كان لورانس أشبه بالفأر في المصيدة، على أنني أرجو أن يتولى الدفاع عن بريندا محام يأخذ بيدها ويقف إلى جانبها في محنتها.

كان موقفها لا يقل غرابة عن موقف صوفيا، فكلتاها

تمقت بريندا وكتاهما ترجو أن يبذل المستطاع لكفالة الدفاع عنها. واستطردت إديث دي هافيلاند تقول: نعم، يجب أن تهيأ لها كل الفرص وكل وسائل الدفاع الممكنة حتى لا تذهب ضحية ظلم أو خطأ من أخطاء القضاء.

فسألتها: ولورانس؟

فأتت بحركة تدل على نفاد صبر وقالت: لورانس رجل يستطيع أن يتولى أمر نفسه، أما بريندا فإن أرسيتيد لن يغفر لنا إذا... ولم تتم عبارتها وأردفت: لقد حان وقت الغداء فهلم بنا إلى البيت.

- ولكنني قلت لها إنني أنوي العودة إلى لندن، فسألت: هل ستعود بالسيارة؟

- نعم.

- هل تأخذني معك؟ لقد قيل لي إنه سمح لنا بمغادرة البيت.

- يسعدني أن أصحبك معي، ولكنني علمت أن ماجدا وصوفيا ستذهبان إلى لندن بعد ظهر اليوم ولا شك إنك تفضلين سيارة فارهة كبيرة على سيارتي الصغيرة ذات المقعدين.

- يهمني ألا أذهب معهما. هلم بنا ولا تخبر أحداً.

فدهشت ولكنني نزلت على إرادتها. ولم تتحدث كثيراً في الطريق، وسألتها إلى أين تريد الذهاب فأجابت: إلى شارع هارلي حيث يوجد كبار الأطباء.

وأفلقني جوابها ولكنني لزممت الصمت، ثم قالت: بل
من الأفضل أن تتركني أمام مطعم دبنهار، سأتناول هناك طعام
الغداء ثم أذهب بعد ذلك إلى شارع هارلي.

- آمل أن...

فلم تدعني أتم عبارتي وقالت: لهذا لم أشأ القدوم مع
ماجدا. إنها تحيل كل شيء إلى مأساة.

- يؤسفني أن أعلم أن...

- لا تأسف على شيء. إنني في أفضل صحة، أريد فقط
إجراء بعض الفحوص.

* * *

لم أكن قد رأيت أبي خلال الأيام الأخيرة، فوجدته مشغولاً بقضية أخرى غير قضية ليونيدس، ولم أجد بداً من الذهاب إلى تافرير في مكتبه. وكان أول ما فعلته أنني هنأته على توفيقه في القضية، فتقبل تهنئتي في سرور ولكن لم يبد عليه أنه راضٍ كل الرضا. قال: مهما يكن من أمر فقد اكتملت عناصر الاتهام وانتهى الأمر.

- هل تظن أن المحكمة ستدينهما؟

- من المتعذر التنبؤ بشيء في مثل هذه القضية. إنها تختلف عن سائر قضايا جرائم القتل في أن الأدلة التي لدينا ليست أدلة مباشرة، وسوف يتوقف الكثير على الانطباع الذي يتركه المتهمان في نفوس المحلفين.

- أليست الرسائل دليلاً كافياً؟

- إنها تبدو كذلك لأول وهلة، ففيها عبارات تشير إلى ما سوف ينعم به العاشقان من السعادة بعد موت العجوز، ولكن بوسع الدفاع أن يزعم أنها عبارات بريئة وأن الزوج كان طاعناً في السن فمن الطبيعي أن تتوقع زوجته وفاته في أية لحظة.

ويضاف إلى ذلك أنه يحتمل أن يزعم لورانس أنه الفاعل الوحيد وأن بريندا تجهل كل شيء، كما يحتمل أن يحدث العكس أو أن يعترف بأن الجريمة قد ارتكبت باتفاقهما معاً.

- ما رأيك أنت؟

- ليس لي رأي على الإطلاق. لقد جمعت الحقائق وكتبت تقريراً إلى النائب العام، وقرر النائب العام أن هناك ما يبرر تقديمهما للمحاكمة. لقد أدّيت واجبي ولا شأن لي بما حدث بعد ذلك.

وشعرت من حديثه أنه غير مقتنع تماماً باتهام بريندا وصديقها. وكدت أن أصارحه بذلك لولا أن دق جرس التليفون في هذه اللحظة، فتناول تافرر السماعة وأصغى، ثم قال لي: إنك مطلوب لحديث تليفوني في مكتب أبيك.

فهرولت إلى مكتب أبي الذي بادرنى بقوله: إنها الآنسة صوفيا ليونيدس، يبدو أن الأمر عاجل.

تناولت السماعة وأنا أتوقع سماع نبأ اعتداء جديد على جوزفين: ألو، صوفيا؟

- أهذا أنت يا تشارلز؟

كان في صوتها نبرة يأس وقلق، وقالت: إن المشكلة لا تزال قائمة والقاتل ما زال في البيت.

- ماذا تعنين؟ هل حدث شيء لجوزفين؟

- كلا، ليست جوزفين، إنها ناني.

- ناني؟

- نعم، كانت هناك بقية من الكاكاو في كوب جوزفين فلم تشأ إهدارها وشربتها.

- مسكينة ناني، هل حالتها سيئة؟

فقال صوفيا بصوت متهدج: لقد ماتت!

* * *

أحسست وأنا في السيارة التي أقلتني مع المفتش تافرير إلى البيت المشؤوم بنفس الكابوس الذي رزح على صدري في رحلة مماثلة قمنا بها من قبل ، ووجدت أنني أردد بين الفينة والفينة بغير وعي : إذن القاتل ليس لورانس ولا بريندا. والواقع أنني لم أقتنع بصحة اتهامهما وإنما تظاهرت بالافتناع تجنباً للخوض في احتمالات أخرى. كنت أعلم أن بريندا بطبيعة تكوينها الخامل وولعها بالترف والاسترخاء والحياة السهلة لا يمكن أن تتورط في مغامرة غرامية بحيث يدفعها العنف إلى ارتكاب جريمة قتل ، وأن لورانس من الطراز الذي يؤثر الحياة في الأحلام والخيالات على معالجة الأمور بالعنف والجريمة. كل ما هناك أنهما وقعا في الفخ فجن جنونهما ذعراً ولم يعرفا كيف يخرجان. ومن الأكيد أن بريندا قد تخلصت من الرسائل التي تلقتها من لورانس لأن أحداً لم يعثر عليها، أما لورانس فكان من الغباء بحيث احتفظ برسائلها إليه. كذلك لم يكن مما يتفق مع تكوين لورانس وعقليته ومزاجه الشعري أن يدبر ذلك الفخ للقضاء على جوزفين. إن الذي دبر الفخ لا يزال حراً طليقاً.

استقبلنا في البيت شرطي لا أعرفه، فانتحى تافرير به ناحية وراح يتحدث إليه. أما أنا فقد لفت نظري وجود حقائب تدل على أن هناك من يعتزم الرحيل، وعندما هممت بفحصها أقبلت علي كليمنسي وهي تقول: أنت جئت في الوقت المناسب يا تشارلز لكي نودعك.

- هل اعترمتما على الرحيل؟

- نعم، سأرحل مع روجر. سنقضي هذه الليلة في أحد فنادق لندن وغداً نستقل إحدى الطائرات.

كانت تبسم، ولكنني رأيت في عينيها نظرة قلق، فقلت لها: مستحيل أن ترحلا اليوم.

- لماذا؟

- توجد بالبيت امرأة قتيلة.

- لا شأن لنا بموت ناني.

- ربما، ومع ذلك...

- لماذا تقول ربما، لقد كنت مع روجر في شقتنا لإعداد حقائبنا ولم نغادرها طيلة الوقت الذي كان فيه كوب الكاكاو على مائدة الطعام.

- هل تستطيعين إثبات ذلك؟

- ألا تكفي أقوالي وأقوال روجر؟

- كلا، لا تنسي أنكما زوجان.

- هذا سخف يا تشارلز. إنني وروجر في طريقنا إلى حياة جديدة فأية مصلحة لنا في قتل امرأة طيبة مسكينة مثل ناني؟

- ربما لم تكن هي المقصودة.

- وأية مصلحة لنا في قتل طفلة؟

- هذا يتوقف على الطفلة.

- ماذا تعني؟

- إن جوزفين ليست طفلة عادية، فهي تعرف أشياء كثيرة عن كل إنسان في هذا البيت، وربما...

ولم أتم عبارتي، فقد رأيت جوزفين مقبلة نحونا وهي تقضم تفاحة وعيناها تتألقان فوق وجنتيها الموردين. قالت تحدثنا: لقد ماتت ناني بالسم، تماماً مثل جدي! إنه أمر مشير، أليس كذلك؟

فقلت لها بجفاء: أألس آسفة على ناني؟ أما كنت تحيينها؟

- كلا، فكثيراً ما كانت تعنفني.

- ألا يوجد من تحيينه يا جوزفين؟

فأجابت وهي تنظر إلى كليمنسي من ركن عينها: أنا أحب إديث، وكان من الممكن أن أحب أوستاش لو أنه اهتم معي بالكشف عن المجرم الذي فعل كل هذا.

- من الخير لك أن تكفي عن البحث يا جوزفين فذلك خطر.

- لم أعد بحاجة إلى البحث، فقد عرفت كل شيء.

حينئذٍ سمعت آهة عميقة، فرفعت رأسي ورأيت إديث تهبط الدرج وعيناها لا تتحولان عنها. ثم قلت وأنا أمسك بساعد جوزفين: تعالي يا جوزفين، أريد التحدث إليك. واقتدتها إلى غرفة صغيرة غير مطروقة وأغلقت الباب وطلبت إليها أن تجلس، ثم جلست أمامها وقلت لها: في استطاعتنا الآن أن نتفاهم يا جوزفين، فحدثيني ماذا تعرفين؟

- أعرف أشياء كثيرة.

- هل تعرفين من وضع السم في كوب الكاكاو؟

أومأت برأسها علامة الإيجاب، فسألتها: وتعرفين من حاول قتلك في غرفة المهملات؟

فهزت رأسها مرة أخرى. قلت: إذن يجب أن تصارحيني بكل ما تعرفين وفوراً.

- كلا.

- إن من واجبك أن تضعي كل معلوماتك بين أيدي رجال الشرطة.

- رجال الشرطة مغفلون ولن أقول لهم شيئاً. لقد اتهموا بريندا ولورانس وقالوا إنهما القاتلان، ولكنني لم أكن مغفلة مثلهم. كنت أعلم أن بريندا ولورانس بريتان.

- جوزفين، إنني أعترف لك بالذكاء، ولكن ما قيمة هذا الذكاء إذا لم تستمتعي بلذة انتصاراتك؟ ألا تعلمين

أيتها الحمقاء الصغيرة أن حياتك ستظل دائماً في خطر طالما
تحتفظين لنفسك بالأسرار التي تعرفينها؟

- أعلم ذلك جيداً.

- إذن ستقولين لي ما تعرفين ولو اضطررت في سبيل
ذلك إلى استخدام العنف.

- في استطاعتي دائماً أن أكذب.

- أعلم ذلك، ولكن ماذا تستفيدين من الكذب؟ وإلى
متى تريدين الاحتفاظ بمعلوماتك؟

- أنت لا تفهم، فإنه من المحتمل جداً ألا أتكلم أبداً.
ربما لأنني أحب المجرم أو لأنني أعطف عليه. هل فهمت؟
وصمتت لحظة كأنما لتمنحني فرصة لاستيعاب وجهة نظرها،
ثم استطرقت قائلة: على أنني متى قررت الكلام فسوف أفعل
ذلك طبقاً للأصول، فأدعو إلى اجتماع حافل في قاعة فسيحة
وأحكي كل شيء، ثم أشير إلى القاتل وأصيح به: أنت القاتل.

ومدت إصبع الاتهام في اللحظة التي دخلت فيها إديث
هافيلاوند. ورمقت إديث الطفلة بعينها ثم قالت إنها ستخرج
معها في نزهة بالسيارة. وفهمت من نظرتها إلي أنها تفعل ذلك
كوسيلة لتأمين سلامة الطفلة خلال الساعتين القادمتين.

ابتسمت جوزفين ورحبت بالنزهة المرتقبة، فقالت إديث:
صففي شعرك وأحضري قبعتك ومعطفك، فإن الجو يميل إلى
البرودة. هل لك أن ترافقها إلى غرفتها يا تشارلز ريثما أكتب
رسالتين صغيرتين؟

اصطحبت جوزفين إلى غرفتها، وكان في نيتي أن أفعل ذلك حتى ولو لم تطلبه إديث فقد كنت أشعر بأن الطفلة تواجه خطراً لا شك فيه. وساعدت جوزفين في تصفيف شعرها، وكنت أضع اللمسات الأخيرة في زينتها حين دخلت صوفيا. وأدهشها ما رأيت فهتفت: أنت هنا يا تشارلز؟ لم أكن أعلم أنك أصبحت وصيفة!

وراعني شحوبها والهالة السوداء التي تحت عينها. ثم ذهبنا إلى إديث، وكانت قد فرغت لتوها من رسالتها الثانية فنهضت وهي تقول: هيا بنا يا جوزفين. لقد أمرت إيفانز بإعداد السيارة الفورد السوداء.

واجتزنا البهو، وكانت الحقائق لا تزال في مكانها فوقفت إديث بالباب ونظرت إلى السماء وقالت: إن الجو صحو والنسيم بارد ولكنه منعش. ثم تحولت إلى صوفيا وقبلتها وقالت: إلى اللقاء يا عزيزتي، لا تجهدني نفسك فهناك أشياء لا مفر منها يجب مواجهتها.

كانت السيارة تنتظر بالباب، فاحتلت إديث مكانها أمام عجلة القيادة وجلست جوزفين بجوارها، ولوحت لنا إديث وجوزفين بأيديهما مودعتين، وتحركت السيارة.

قلت أحدث صوفيا: لقد أحسنت إديث بإبعاد جوزفين عن البيت، ولكني ما زلت مقتنعاً بضرورة إرغام هذه الطفلة على الإفضاء بكل ما تعلمه.

- من المحتمل أنها لا تعرف شيئاً أصلاً، إنها مغرورة وتحب أن تضيفي على نفسها شيئاً من الأهمية.

- هل عرفتم نوع المادة السامة التي وضعت في كوب الكاكاو؟

- المعتقد أنها مادة الديجالتين التي تتناولها إديث كعلاج لقلبها. كان في غرفتها زجاجة مليئة بالأقراص وقد وجدت فارغة.

- كان يجب عليها أن تضعها في مكان مغلق.

- ذلك ما فعلته، ولكن لم يكن من العسير العثور على المفتاح.

* * *

غابت الشمس وراء الأفق وهبت نسمة باردة، فارتعدت صوفيا وقالت: مضت أربع ساعات ولم تعد إديث وجوزفين، هلم بنا ندخل إلى البيت.

كنا وقتئذٍ في الحديقة، فتأبطت ساعدها ودخلت معها إلى البيت حيث تناولنا الشاي وجلسنا ننتظر. ومرت ساعة أخرى وبدأ القلق يفتك بأعصابنا. كان تافرنا لا يزال بالبيت فحدثته عما يساورنا من قلق على إديث وجوزفين، فأجرى بعض الاتصالات التليفونية وأصدر بعض التعليمات، وقال لي إنه سيخطرني حالما يتلقى نبأ عنهما. ثم عدت إلى قاعة الاستقبال فوجدت صوفيا في حالة يرثى لها من القلق. وقالت حالما أبصرتني: لا بد أنه قد حدث لهما حادث يا تشارلز، أنا واثقة من ذلك.

فضحك أوستاش وقال: لماذا القلق؟ لا شك أنهما ذهبتا إلى السينما.

وخرج وهو لا يزال يضحك.

* * *

في نحو الساعة السادسة جاءنا تافرير يخبرنا بالنبأ الذي يحمله ، ونظرت إليه صوفيا وحبست أنفاسها. قال: يؤسفني أن أحمل إليكم أنباء سيئة. لقد أذعت نداء بالراديو فأبلغنا أحد شرطة المرور أنه رأى السيارة تنحرف عن الطريق العام بالقرب من فلاكسبور وتسير نحو الغابة.

- في الطريق إلى المحاجر؟

- نعم.

وصمت قليلاً ثم قال: لقد وُجِدَت السيارة مقلوبة في أحد المحاجر وبداخلها جثتان. وقد يخفف من وقع الكارثة أن تعلموا أنهما قد توفيا فور انقلاب السيارة.

عندئذٍ سمعنا صرخة مدوية: جوزفين!

كانت ماجدا بالباب وقد سمعت النبأ، وصرخت مرة أخرى: جوزفين، ابنتي العزيزة!!

فأسرعت صوفيا إلى أمها واحتضنتها وضممتها إلى صدرها، وتذكرت في هذه اللحظة أمراً. تذكرت أن إديث دي هافيلاند كتبت رسالتين، وأن الرسالتين كانتا في يدها عندما اجتازت البهو ولكني لم أرهما عندما ركبت السيارة.

وأسرعت إلى البهو، ولم تمض لحظات حتى عثرت بالرسالتين خلف آنية للزهور فوق المدفأة. كانت إحدى الرسالتين تحمل اسم المفتش تافرير، وكان تافرير قد تبعني فأعطيته الرسالة ففضها وقرأ بصوت مسموع:

أظن أن هذه الرسالة سوف تُقرأ بعد موتي. لا أريد الخوض في التفاصيل لكنني أعلن بإيجاز مسؤوليتي عن موت أرسطيد ليونيدس وجانيت رو المشهورة بناني، وأقرر أن بريندا ليونيدس ولورانس براون بريثان مما نُسب إليهما. وسوف يؤكد الدكتور مايكل الطبيب بشارع هارلي أنني مصابة بسرطان الحلق وأن موتي محقق بعد بضعة شهور، ولذلك قررت ألا أرحل بالطريقة التي اخترتها دون أن أوفر على شخصين بريئين محنة محاكمتها لجريمة لم يرتكباها.

إديث دي هافيلاند

* * *

سمعت صوفيا الرسالة كما سمعتها وهتفت وهي لا تكاد تصدق أذنيها: الخالة إديث؟! ثم نطقت على الفور بالسؤال الذي كان يتحير على شفتي إذ قالت: وجوزفين، ما ذنبها؟ لماذا اصطحبتها؟

فقلت: نعم، لماذا قتلتها؟ لماذا؟ ولكنني لم أعرف الجواب.

وكانت الرسالة الثانية لا تزال في يدي وكانت أضخم من الأولى، وقد عرفت محتوياتها قبل أن أفضها. عرفت أنها تحتوي على الدفتر الصغير الأسود، دفتر جوزفين.

وأطلت صوفيا من فوق كتفي لتقرأ معي السطر الأول في الدفتر: «اليوم قتلت جدي»!

* * *

لقد تساءلت فيما بعد كيف لم أدرك هذه الحقيقة الواضحة وضوح الشمس في رابعة النهار؟ حقيقة إن جوزفين هي الوحيدة التي لا يمكن أن يتخطاها الاتهام. كان غرورها والأهمية التي تضفيها على نفسها، وحرصها على إبراز ذكائها واللذة التي تشعر بها عند المقارنة بين مقدرتها وعجز الشرطة، كل هذه كانت أصابع اتهام إليها. ولأنها طفلة لم يخطر ببالي أنها تستطيع ارتكاب جريمة قتل، ونسيت أن أرسيتيد ليونيدس قد أرشدها بنفسه إلى الطريقة وأنه كان بوسعها أن تعمل بإرشاده، مع احتياط بسيط هو ألا تترك بصمات أصابعها، وذلك أمر لا بد أنها عرفت من إدمانها قراءة القصص البوليسية.

وذلك الفخ الذي نصب لها في غرفة المهملات. كان يجب أن أدرك أنها التي نصبته لنفسها، فإنها رغم ذكائها قد تركت آثارها في صورة قطع من الوحل الجاف على المقعد الخشبي، وقد كانت هي الوحيدة بين أهل البيت التي لا تستطيع بلوغ الحافة العليا للباب إلا إذا وقفت على الكرسي. يضاف إلى ذلك أن الفخ كان على جانب كبير من السذاجة وضحالة التفكير، إذ كان من الممكن أن يهشم التمثال

الرخامي رأسها ويقتلها، ولكن مما لا شك فيه أنها كانت تنظر إلى نفسها كبطلة وبطلات القصص - كما تعلم هي - لا يمتن!

وقد استطاعت ببراءة أن تلفت نظري إلى الخزان، ونجحت في تشتيت تفكيرنا وإبعاد الشبهات عن نفسها بتلك الفوضى التي أحدثتها في غرفتها. وعندما عادت من المستشفى وعلمت باعتقال بريندا ولورانس أحست بخيبة الأمل وشعرت بأن المغامرة قد بلغت ذروتها وبأن الأضواء ستتحسر عنها، فسرت ذلك العقار من غرفة إديث ووضعت في الكمية التي لم تشربها من الكاكاو وتركت القدر في مكان واضح على المائدة. فهل كانت تعلم أن ناني ستشرب بقية الكاكاو؟ ربما، لقد قالت لي بنفسها إنها تمقت ناني لأنها كثيراً ما انتهرتها وعنفتها. أم ترى أن ناني بما لها من خبرة في تربية الأطفال قد فطنت إلى الحقيقة وأدركت أن جوزفين وراء الجريمة فسارعت هذه إلى الفتك بها؟ ذلك ممكن أيضاً.

لقد كانت جوزفين بإجماع الآراء مخلوقة غير عادية، فهي ذكية العقل ولكنها ملتوية التفكير، ولا بد أن يكون أرستيد قد أدرك هذه الحقيقة منذ وقت طويل فأشفق على الطفلة نفسها من تبعات انحرافها العقلي وقرر تثقيفها في البيت وعدم إرسالها إلى المدرسة.

وماجدا؟ هل كانت تعرف الحقيقة؟ إن إسراعها في إرسال ابنتها إلى سويسرا يدعو إلى هذا التساؤل. لكنني لا أظن أنها كانت تعرف، ولعل غريزة الأمومة وحدها هي التي دفعتها إلى التفكير في إقصاء ابنتها خوفاً من المجهول. وإديث دي هافيلاند؟

وتناولت رسالة إديث التي أرفقتها بالدفتر الأسود وقرأت فيها ما يلي :

عزيزي تشارلز ،

هذه الرسالة لك وحدك ولصوفيا إذا استصوبت أنت ذلك. لقد رأيت من الضروري أن أطلع إنساناً ما على الحقيقة. لقد وجدت الدفتر المرفق في حظيرة مهجورة من حظائر الكلاب خلف البيت ، وما قرأته في الدفتر قد أكد الظنون التي خامرتني. فهل أنا على صواب فيما قررت الإقدام عليه؟ لا أعلم ، ولكن حياتي قد انتهت تقريباً ، ولست أريد للطفلة أن تكابد العذاب الذي ينتظرها حتماً عندما تُسأل عما قدمت يداها. إن الطبيعة كثيراً ما تدفع إلى الحياة صغاراً يختلفون عن غيرهم. فإذا كنت قد أخطأت فإنني أرجو الله أن يغفر لي لأن ما سأفعله إنما أفعله بدافع الحب. بارك الله فيكما.

المخلصة : إديث دي هافيلاند

قرأت هذه الرسالة فلم أتردد إلا قليلاً قبل أن أدفع بها إلى صوفيا ، ولما فرغت صوفيا من قراءتها شرعنا في تلاوة ما سجلته الطفلة في دفترها من اعترافات تثير الشفقة بسذاجتها وإخلاصها: "اليوم قتلت جدي. إنه لا يريدني أن أتعلم رقص الباليه ، فقررت أن أقتله لكي أنتقل مع أمي إلى لندن وأصبح راقصة باليه عظيمة".

وكانت الفقرة التالية لا تقل غرابة عن سابقتها: "لا أريد أن أسافر إلى سويسرا ، فإذا أصرت أمي فسأقتلها. ليس لدي

سم ولكني سأجد وسيلة ما. إن أوستاش يغيظني، فهو يقول إنني فتاة وإن الفتيات لا يصلحن لأعمال الشرطة، ولكنه لا بد أن يعدل عن رأيه إذا علم أنني التي قتلت جدي. أنا أحب تشارلز ولكنه غيبي. لست أعلم بعد من سأتهم بارتكاب الجريمة. ربما أتهم بريندا ولورانس. إنني أمقت بريندا لأنها تقول إنني مخلوقة شاذة، ولكني أحب لورانس، فقد روى لي قصة شارلوت كورداي التي قتلت أحد زعماء الثورة الفرنسية وهو يستحم".

وجاء في الصفحة الأخيرة: "إنني أكره ناني، فهي تزعم أنني طفلة مغرورة تريد أن تجعل لنفسها أهمية، وهي التي تحض أمي على إرسالني إلى سويسرا. سأقتلها، وأظن أن دواء الخالة إديث يكفي لذلك، ومتى حدثت الجريمة الثانية فإن رجال الشرطة سيعودون إلى البيت ويصبح الموقف مثيراً". "ماتت ناني، ولا أعلم أين سأخفي زجاجة الدواء. قد أخفيها في غرفة العمدة كليمنسي أو في غرفة أوستاش، وحينما أشعر بدنو أجلي بعد أن أكون قد بلغت من السن عتياً سأرسل هذا الدفتر إلى مدير الشرطة لكي يعلم أنني كنت أعجوبة العصر في فن الجريمة".

وطويت الدفتر فهتفت صوفيا وهي تبكي: هذا مخيف يا تشارلز! كانت المسكينة وحشاً في صورة إنسان، ولكني لا أشعر نحوها بغير الشفقة والثناء.

وكان ذلك هو شعوري أيضاً. وسألنتي صوفيا: ما هو المصير الذي كان ينتظرها لو أنها عاشت؟

- كانوا سيضعونها في معهد للشواذ، ومتى كبرت ألقوا بها في السجن.

- إذن فقد أحسنت إديث صنعاً.

- نعم، لقد أقدمت على أنبل تضحية يمكن أن تقدم عليها امرأة من أجل أسرتها.

* * *

(تمت)